د. ريكان ابراهيم



علم النفس والتاريخ

دار الكندي

علم النفس والتاريخ

الدكتور

ريكـــــان إبراهيم

الطبعة الأولى

2014م /1435 هـ



دار ومكتبة الكندي للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2014)
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر
هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

عنوان الكتاب: علم النفس والتاريخ

مؤلف الكتاب: د. ريكان إبراهيم

الطبعة الأولى

2014م /1435 هـ



المملكة الأردنية الهاشمية – عمان – وسط البلد- تلفاكس: 0096264640597 –

ص . ب. 184248 – الرمز البريدي 11118

e-mail: dar_alkindi@yahoo.com

كلمة

هذه اضمامة من ستة فصول تناولت فيها علاقة علم النفس بالتاريخ واثـر العوامل النفسية لشخوص التاريخ في صنع أحداثه.

وقد تناولت في هذه الدراسة العوامل الصانعة للتاريخ من منظـور نفسي ودرست سلطة الكلمة ومدلولها الأثرى النفسي في وصف الأحداث التاريخيـة، كما درست في احد الفصول علاقة الوظيفة الوجدانية في النفس البشرية بالحدث التاريخي على صعيد الفرد والمجتمع. وحاولت في فصل آخر تناول العلاقة بـين العمل العقلي وصناعة التاريخ. ثم تفحصت بالميسور من البحث اثر التـاريخ في تكوين الشخصية الإنسانية. كما أقمنا علاقة بين التاريخ الأدبي وعلـم الـنفس وكيف يستطيع الأديب أن يكون مؤرخاً بأدبه وكيف يكون الأدب جزءاً مـن التاريخ المقروء لامة من الأمم. آمل ان لا يكون الاقتضاب أينما وجد في هـذه الاضمامة حاجباً دون وضوح قصد او مانعاً لفائدة. ودعائي ان يسد الكتـاب فراغاً في مكتبتنا العربية في علاقة علم النفس بالتاريخ.

ريكان ابراهيم

الفصل الأول

العوامل الصانعة للتاريخ في المنظور النفسي

- الزمن
- الحركة
- الضوء
- الحرارة
- الجغرافية
- الخوف والحب
- الميثولوجيا
- التراكم
- صيغة الهرم
- العرقية
- اللغة
- الكذب
- الحواس
- العصاب
- التوسيع الواعي للادراك
- الاحلام
- عامل الفارق الجنسي
- التكيف
- الاغتراب
- النرجسية

قد يكون من السهل ان نضع تاريخا لعلم النفس، الا انه ليس سهلاً البتة وضع علم النفس للتاريخ. فلكي يقرأ علم النفس جانباً من جوانب انسانتينا بما فيها التاريخ قراءة حية، فانه ملزم بان يتوفر على العميق الدسم والموغل الدفين في ذلك الجانب. الذي يكاد يعرفه اغلبنا ان التاريخ يعني باديء ذي بدء: البداية. و لم يجد دراس ما صعوبة اعتى واشق في بحث أي من مناحي المعرفة مثل الصعوبة التي يجدها في ذلك المنحى عندما لا يستطيع تحديد بدايته. والبداية تعني النقطة الزمنية التي تؤثر على منحنى المسار المادي للكينونة الفعل المتحقق سلوكياً، والمنتج للشيء او الموضوع او الحدث.

ولما كانت هذه النقطة لا تتعين الا بالزمن، فالزمن هو الاب الروحي للتاريخ فمن هو الاب الروحي للزمن اذن؟ اكاد لا اقول الا حقاً عندما اقرر ان اب الزمن هو الحركة. ومن هنا تدخل الدينامية (بمجمل مفهوم الحركة في المسار) عاملاً صانعاً ومحدداً للزمن، بل ومربكاً بعض الارباك لاستقرارية الباحث في وضع بدايات ناتج الدينامية: التاريخ. ولكي نقترب قليلاً من مطب الواقعية نجد القول ضرورياً ان كل تاريخ هو زمنه وان كل زمن هو حركته وان كل حركة هي دوران جرم معتم حول جرم مضيء اذا كان الامر يعني حركة المدار الاكبر للزمن بصيغة الارض والشمس. وكأننا هنا نقرر مصدر فهم الحركة انها الضياء الاول. فالشمس والارض في علاقتهما شريكان في صنع الموقد الأول للزمن بتناظر الحركة مع السكون تناظر الشيء والنقيض ولو بنسبة وهي كذلك.

ولما كان الضياء الشمسي هو الدفق الاول لظهور زمن التاريخ فان ناتجه المرافق له: الحرارة، هو الشريك الآخر في تاطير المحصلة او الحرارة بامتدادها وانحسارها، بشدتها وانخفاضها، بتوزيعها واضطرابها تصنع الجغرافية[١]. من هذا يمكن ان نصل الى علاقة جدل الجغرافية مع التاريخ، ونصل الى ان الجغرافية تسهم بجدارة في صنع التاريخ، والتاريخ يصنع ادوات القهر المضاد لاضطهاد الجغرافية لعنصر الاحياء على الارض. فلكي تبرز الحياة يجب ان تنتصر على النقيض: الموت. والجغرافية القاهرة بالمناخ الفصلي والطقس اليومي عامل معيق لدفق الحياة. ورواد الحياة، بدءاً بالانسان، هم عوامل منافحة هذه الاعاقة بصراع مفرز كسلوك يقرر تاريخاً.

اذن فالتاريخ وان كان ناتجاً، هو عملية رد على الفعل الجغرافي المرير الاول. وعملية الرد هي في حقيقتها رد فعل، اذن فهي سلوك، فالتاريخ بهذا لا يعدو كونه مسارا سلوكياً حياً لممارسه. فكيف ترى النفس العاقلة – الانسان – كينونة هذا السلوك وكيف تنظر اليه لكي تستفيد منه. ان توفر العقلانية الملتفتة الى الخلف الانساني نقطة مهمة في فهم مفردات هذا السلوك. ان من اوائل معدات التهيؤ في النفس الانسانية لمجابهة القهر الجغرافي عاملين اساسيين: الخوف والحب[٢]. فالانسان الاول اخافته ظواهر الطبيعة فرد عليها بردود قهر الخوف (تكوين رد الفعل Reaction Formation) فالذي استطاع ان يرده منكفئا، دجنه واحبه والذي عصا عليه سبره واستكناهه خافه وترقبه، بل وعزاه الى غيبة احبها حب الارجاء والنذرية راضيا ان يكون حبه بذيلا لخوفه وانتماؤه للمجهول ثمنا لفضولية الكشف المرجأة الى اللاحق من الكشف والاستبار.

ان مفارقات هذين العاملين: الخوف والحب هي التي ولـــدت التجلـــي التاريخي في النفس. والنفس المجبولة على كره المجهول مجبولة بالضمن على سياسة ملء الفراغات بالممكن وان كان واهياً. وربما كانت هذه الجبلة هاجـــساً اوليـــاً للاخشاء الفكري بالميثولوجيا والبنية الخرافية وروح التابو وشيوع الطوطميـــة[٣] سدا لشاغر ظل الخوف او العجز عن قهر الخوف مؤقتاً عنصر تعزيـــز لـــه، ولا سبيل لمثل هذا الاحتشاء الممقوت سلفا في العقل العلمي الناتج عن ديناميةالمسار الا الهدم للمبتنى على اسس الخوف والاستبدال بابتناء جديد اساسه الحب الناتج من مرحلة فهم لجديد وسبر لمخفي غامض. ان النفس لصيقة بموروثها وان كان فجا وعاشقة له وان كان خرافيا لانها هي التي اوجدته بالحب او الخوف في نقطة زمنية على المنحنى وظلت تحترم قدريتها فيها وقدرتها في تلك القدرية. والـــنفس الانسانية تفجعها في الوقت عينه صيغة المسلمات الجاهزة من الموروث لانها مجبولة على روح الاختبار. وهي بالضد سعيدة عندما تكتشف وتعيسة عندما تتـــسلم الجاهز في قالب مصنوع بيد غيرها. ان روح الاله السرمدي نزعة اصيلة في النفس (المجمل)، ولأنها كذلك فهي دافعة الى صنع الهات او آلهة تتوحد في اله واحـــد واعتقادات شتى تتلاقى في اعتقاد واحد وبالتالي في تواريخ شـــتى تتقـــاطع ولا تتوازى – الا بما يحترم فيها الزمن – لتلتقي في تاريخ واحد. لـــيس للمـــوروث المسمى جوازا (تاريخا) أي معنى عندما تتمثله كمساحة سطحية ببعدين: طـــول وعرض. فالهندسة النظرية – لا المجسمة – لا تعني شيئاً في علم السلوك الانساني. ان التاريخ جسم وبعده الثالث (العمق) هو الزمن. ان اخطر مرحلة من مراحـــل فهم التاريخ في النفس هي مرحلة التراكم[٤]. فبين ان تترامى العطاءات السلوكية المستجدة في المسار النفسي فوق التواريخ التي سلفت وبين ان يجـــرف المعاصـــر السلفية من التاريخ تكمن معضلة الاختيار المرير. ان التراكم يجب ان يفهم على

انه التدريج المعرفي ولكن اية محاولة للقبول بالتراكم المادي لا الكيفـــي مخلــة في عملية فهم المسار الذي شهد اخفاقا ونهوضاً، هبوطاً وصعودا، ظلمة واضاءة في بندولية لا يمكن ان يكون عامل الزمن مفيداً فيها ابداً. ان حضارة قديمة تعقبـــها اخفاقة واخفاقة قديمة تعقبها يقظة حضارة، دليل على تداول المعرفـــة بـــالكيف الصائر على حساب الجسد الكمي في صراع الاضداد بين العوق والارادة وبالتالي بين العائق والمريد.

ان الميثولوجيا الانسانية معرفة فيها الخوف وفيها الحب. فيها الخوف من مجاهيل وفيها الحب في فضول. والملء المعتم بعقلية خرافية هو تعويض يجـــب ان يهدم وان يحل محله المكتشف المضاء بالمختبر من المعروف المشرق. يكاد ما تقدم يقودنا الى القول ان التاريخ واحد، والمخوف البابلي من الرعد والفيضان والنذور المرتجاة دفعاً لسخط الارباب هو مستبدل عراقي جديد بحب للرعد والفيـــضان بانتصار لا يلغي التراكم المعرفي، انما يقره بزمن تصوري مدرك لمرحلة المحاكـــاة المفضية الى جديد تحقق اليوم.

اذا كانت عملية التجريد شاملة لكل معرفة بطريقة النحـــت والـــصقل وتقليم اظافر الشوائب من المطارحات المعتمة فيها، فإنها لاشمل ما تكون عليه في علاقة النفس بالتاريخ. فالتجريد الموجب المعترف بالفضائل، الـــرافض للخطـــأ، مفاضلة صحيحة في المعرفة ذاتها. ان النفس لا ترتقي على تاريخها وانما فيه ومنـــه وليس بسواه. و لم تحقق صيغ االسلوك على طول امتدادها مفرزة افضل في قراءة المعرفة من صيغة الهرم. فالهرمية هي الاستدقاق الممتد علوا – علـــى فـــرض ان القاعدة هي اسفله – او الامتداد اماما – على فرض ان القاعدة هي مؤخرته – او الغور عمقاً – على فرض ان قاعدة الهرم هي اعلاه – المهم ان الهرمية هي الرأسية

في الاتجاه. فالعلو هو محصل الجمع الجبري وكذلك الامتداد ومثله الغور. فالباحث في النفس مطالب بتاريخها. والذي يعنيه - او هكذا يفترض - هو معدات هذا الابتناء الهرمي لا طبيعتها. ان طبيعة المعدات هي محض فرز جغرافي موضعي تمليه المعاصرة من الظروف. الا ان سلامة المعدات هي الاساس قبل طبيعتها. واكاد اكون قادراً على تحديد العديد من معدات بناء الهرم المعرفي للتاريخ في النفس، مستفيداً او مبتكراً في ذلك. فالعرقية، اول هذه المعدات، بمفهومها الوضاء وانفتاحها الفياض تسهم في الهرم. وعرقية المجتمع كما يفهما علم النفس هي توحد الأنا الجماعي لتكوين ظاهرة (الحشد) في مقاومة الصعوبة الجغرافية. ومثلما توحد الجغرافية ظروفها في البرد والمطر والحرارة، حري بالعرقية (بصيغة الحشد) ان توحد الكتلة (massincaticn) وتلطف الكيف الموضوعي للتأقلم او الانتصار على الوحدة الجغرافية القاهرة. ان مناخ وادي الرافدين وفر ظاهرة الحشد في ابنائه بالقدر الذي افرز العرقيه. وعراقة العرق هي تاريخه، واستلام رسالة الحشد من السلف امانة العرقية اللاحقة التي اودعتها فيها سابقتها. فالشعوب التي تخضعها ضرورة الموقف لضرورة ظاهرة الحشد تهون على الصيغ الفردية مهمة حمل المسؤولية انفراداً. واذا استخدمنا لغة الكيف الموضوعي كناتج لظاهرة الحشد الجمعي فان ضرورة العرقية تفرز ظاهرة (المشاعر). والوجدان الجماعي هو مجمل جبري موجب باتجاه نشوء الضمير العام، ليس لانه جمع لاجزاء بل لانه عنفوان يعيش بكله العام في كل ضمير خاص. والنفس التي تجد ذاتها ممثلة في ضمير عام سرعان ما يتلاشى ضميرها الانتمائي فتتروي باحثة - لهثا - وراء ضمير خاص يسقط صريع المعركة مع الجغرافية الفجة. من هنا تتضح المشاعر عطاء وجدانياً شاملاً لروح (القطيع)، مستدقاً في النهاية باتجاه الراس الهرمي، باحثاً عن قيادة تأتي تلقائياً كممثل للمصطف من الحشد مرصوف

المشاعر تجاه معضلته الكبرى. ولكي لا تتبعثر المشاعر التي افرزتها عرقية الحشد، ينشأ الرباط الحازم للكتلة المادية الاجتماعية ونعني به: اللغة. اللغة التي يحتاجها الحشد هي النقاوة الشكلية للفظ، والعافية الدائمة للمحتوى الخالي من شوائب الخوف من الطومية وميثولوجيا الغوريلا والسعلاة وترهلات التراث التي افرزتها ظلمات المسار على منحنى الزمن الصانع للتاريخ. اللغة التي يريدها الحشد هي المفردات التي تؤلف معجماً يحمل في اوله روح السلف المضيء ويحشر في آخره من باب الترحم والرثاء أخطاء الخوف من مجاهيل العقل التي افرزتها النفس كمؤقت ينتظر زواله بأيدي التجربة والتطبيق.

ان اكبر امل امام النفس في قراءة التاريخ هو الانتصار على زمن التاريخ. فالفائق في القدرة العقلية هو القادر وحده على محو الزمن بحيث يتمثل حالة حضور للماضي والحاضر والمستقبل في آن. والذي يريده علم النفس من الباحثين في التاريخ هو ان يجعلوا الفرد الناظر في التاريخ كالناظر في مرآة ومعه صورة لايام طفولته او شبابه ليرى في تلك المرآة صورتين.. وهنا تبرز المقارنة، مقارنة المتوفر مع المحصود السالف. فان كان في محياه شبه بهؤلاء فهو الوريث المعاصر الذي اسقط الزمن الفاصل من الحساب، وان كان هناك افتراق فان خللا فيه كان قد حدث والتصحيح هنا مسؤوليته ومسؤوليتة مجتمعه. ان هذا لا يفسر ميلاً من جانباً لاشاعة روح التقمص —على اشراقيتها – قدر ما يفسر روح التجديد لان التناظر لا يعني التماثل والتشبه لا يعني المطابقة اذا حسبنا المستجدات ومفارقات العصرنة. ان اكبر مشكلة في علم النفس الاجتماعي يقدمها التاريخ هي مشكلة (الكذب)(٥). فاحداث التاريخ الكاذبة ترفضها النفس، لان الكذب لا يقف على اقدامه امام روح المختبر. ولم تجد الدراسات اوهن ولا افجع من تاريخ كاذب. ويكفي بالكذب في التاريخ فاضحاً له انه هو الفاضح لنفسه.

ومثلما تتهاوى الميثولوجيا الخرافية امام مصداقية اللاحق من الكشف، يتـــهاوى التستر على الاحداث الكاذبة بمطارق الحقيقـــة. ان في علـــم الـــنفس العـــربي والاسلامي آليات عمل بناءة، هي نفسها التي نفخت في المتنبي روح الابـــاء وفي عنترة ما جعل من فروسيته شيئاً لا يصدق، لا لكذبه، ولكن لشموخه الهائل.

هناك مظاهر لا مواعية في ادراكنا للواقع التاريخي كحدث. مـــن هـــذه المظاهر: الحواس[٦]. وتلعب الحواس دور الناقل للحدث السالف بالبنية المقربة بغية ادخالها من عالم الواقع الى عالم العقل. وفي اللاوعي تصبح اجزاء الحدث وقـــائع نفسية. ان اللاوعي الانساني اشمل واكبر من الوعي، وعليه فان القراءة التاريخيـــة هي تصور فردي اولا: أي يختص بالفرد وتختلف من واحد لاخر، عيـــاني: أي مدرك منقول بالحواس، نوعي: يتصوره اللاوعي الفردي بشكل متمايز عن غيره.

والحواس تعمل بقاعدة العتبة (threshoid) امام موضوع الحدث، شـــأنه شأن الحدث كشيء. وما لم يصل الموضوع الى حدود العتبة الواعية فانه (الوعي) الحسي يظل عاجزاً عن استلهامه أولا ثم نقله الى اللاوعي: العالم العقلي الفردي الذي يجعل للشيء موضوعه وللموضوع شيئه بلغة المجمل بلغة المجمل الذي نسميه بلغة التاريخ: حدثاً. وحالة التفكك المؤدية إلى حالة العصاب تخل بعملية الترابط في حالة النقل بالحواس بين الوعي واللاوعي بحيث يستحيل على العصاب كحالة ناشئة ان تستلم حدثاً لان التصدع تاثير بيئي يهبط بالحواس (وسائط الوعي) الى ما دون عتبة النقل المدرك للحدث نفسه. ان عاملاً آخر يصنع الحدث التـــاريخي كمجمل نفسي نسميه التوسيع الواعي لـــلادراك Consiousness widening process). لقد مارس الانسان هذه العملية التوسيعية على مدى عصور ودهور بعوامل ووسائل عديدة كالثقافة وتقوية الأنا الفرديه للانتصار علـــى الخـــوف

ومقاومة التفكك في الانا أمام هزات الجغرافية بعواملها المؤلمة. ان مقاومة تثقيف الوعي وتدعيمه بمقومات تصالبه ابطال مستمر لعمل الحواس، فيصير اللاوعـــي عقلاً خالياً من المعرفة الموثقة بالمدرك من المحيط. ولما كان اللاوعي حالة فاعلة لا يمكن كفها او ايقافها عن ممارسة نشاطها، فان خلوها من المـــستلمات بفعـــل اخفاق الوعي يجعله مضطرا الى ممارية عملية احتشاء تعويضي بالعنديات. فتسود القناعة مكان المعلومة من المعرفة والقناعة تحمل صيغة الافتراض اكثر من حملـــها صيغة التجريب والمصداقية، بالشكل الذي يجعل اللاوعي عقلاً خرافياً مليئاً بالهذاء الزائف الفردي المنشأ، اليوتوبي الصورة. ولكي لا يكون اللاوعي على حال منن ذلك، فان الوعي يجب ان يشبع بالمعرفة ليسد الفراغ اللاوعي ولكي لا يـــضطر اللاوعي الى التعويض بالخطأ الفاجع والتقمص لحالات كونية زائفـــة. ان اكـــبر عمل يحققه الانسان لاشباع الوعي هو انتصاره على عامل الخوف من الجديـــد والمجهول. وبلغة الزمن، قد يصبح الماضي مجهولاً ولكي لا يخافه الانسان الخوف نفسه، فانه مدعو لاستطلاع الماضي بقراءة الاحداث الماضية بـــروح الارضـــاء للوعي. يبدو من هذا التدرج ان الوعي يظل حالة مكتسبة من الطبيعة، في حـــين يظل اللاوعي حالة اسمى من الاكتساب ولكنه محتاج اليه والا خلقه، وحين يخلقه فان خلقه له داخلي المنشأ بالكم والكيف ولكن ببدائية ساذجة. ان الشيء الذي دعا اليه العالم الفرنسي لوسيان ليفي - برول والذي اسمـــاه بـــــ ((المـــشاركة الصوفية)) يعني به حالة العشق بين الوعي واللاوعي. وهي حالة نقـــل المـــدرك المادي الى الحالة السامية التي تصبح بعد تجاوزها عتبة الحـــواس ســـامية ســـهلة الاقتطاف والقبول كحالة من حالات المعرفة (اللاوعية). ولو أخـــذنا بالمعيـــار النفسي حالة الأحلام فإنها هي الأخرى مسهمة في إملاء اللاوعي بصورة مـــن الصور عن الماضي التاريخي. أن الوعي المريض لا يقدم اللاوعي مدركات الحدث

وبالتالي يضطر اللاوعي في حشو المخيلة بالرموز الجاهزة التي لا تشرح إلا نفسها عن طريق احلام لا ترتبط بمعرفة تاريخية فتجيء رموزاً عن هذاء معرفي ساذج. ولكن انتشال الوعي من فقره وتنشيطه باستلهام الاحداث التاريخية بغير كثيراً من موضوع احلام اللاوعي بالمحتوى الرمزي والمحتوى الموضوعي نفسه. ان الاحلام لا تحمل عنصر الصدفة قطعاً ولذلك فهي اما ان تكون مرموزات لمعرفة مستلمة من حالة وعي صحيح واما ان تكون عنديات لا واعية عوض بها بالرمزعن محنة اقتقارى الى الحواس الصحيه ولكي لا ينتصر الرمز اللاواعي في احلام الفرد على رمزية الحلم الى عالم مدرك، يجب ان تبدأ عملية تطعيم الوعي بالمعرفة بصورة مبكرة في عمر الفرد (ولهذا تبرز اهمية تدريس التاريخ الصحيح المحتوى الحدثي للاحداث في السنين الدراسية الاولى) بغية تجنيبهم نشوء مرحلة العصاب كما يرى ذلك طبيب الامراض العصبية بيير جانبيه Pierre Janiet وقبل بداية هذا القرن، ادرك فرويد وجوزيف بروير بأن الهستيريا نمط الم في حياة الفرد. وعزيا ذلك الى حالة من حالات التفكك الحاصل في نشاط الحواس الواعية لاستلام الطبيعية كأحداث، مما يجعل اللاوعي مضطراً الى ممارسة نشاطه، منشطرا، معتمدا بذاته، معتمداً على رموزه في تكوين عالم معرفي تقبل به وان كان رحاميا، محشوا بالهذاء والالم في آن. ولهذا فان عاملاً اساسياً جديداً صانعاً لتاريخ سليم خال من تعويض فردي بنمط من انماط الرحام هو ملء الذاكرة بالسليم السديد من المعرفة الطبيعية للتاريخ.

وفي حالة من حالات الفقر الحضاري في بنية اجتماعية تاريخياً – كما حدث للامة العربية حين مورس عليها حال القطع الدامي لتاريخها – فان مجريات العلاج النفسي تبرز اولاً بافراغ المحتوى الخيالي الساذج في اللاوعي بطريقة التداعي الحر التي نادى بها فرويد بافساح المجال لاسقاط كل سذاجة التبني المعرفي المخطيء

الواهم عن الطبيعة كأحداث ثم اعادة الملء بفعلين: تقوية الوعي بالمعرفة التاريخية وتنشيط الفسلجية العصبية لاعادة رأب الصدع الحاصل بين الوعي واللاوعــي الذي تم افراغه بالتداعي الحر من الوهم التعويضي. ومن هنا تبرز مسؤولية التربية الرسمية في اعادة كتابة التاريخ بغية تجنب اعادة الملءهذه المرة بسذاجة تاريخية او احداث تاريخية مخطئة بديلاً من عنديات لا وعي موهوم. ان كارل يونغ (Karl G. Jung) يعارض اهمية وضرورة التداعي الحر للاوعي الذي نادى بـه فرويـد ويعتبر ذلك مساراً زمنياً ممضاً ربما شكل بحد ذاته عبئاً تاريخياً او شكل عمليـة اجترارية صعبة المخاض على من يحاول غسل اللاوعي ليستبدله بلا وعي جديـد مشرق. ويعرض يونغ بديلاً من ذلك وضعاً علاجياً يمكن بوسـاطته مناشـدة اللاوعي مباشرة بطرق اخرى كأن يكون ذلك باقتحامه مباشرة وبرغم امتلائـه بالالم الهستيري، بالجديد لينخلق بذلك صراع في المخيله بين المخطـئ المختـزن المقحم ووفق القاعدة القائلة بسقوط الخطأ أمام مصداقية الـصحيح، تتـهاوى المخلية المريضة أمام المدخل الجديد ويزيد الصحيح المريض من اللاوعي. ونعتقد أن طريقة يونغ تحمل كثيراً من التطبيقية بما يجعلها متفوقة على طريقة التـداعي الحر. ومن العوامل الفردية التي اعتبرها علم النفس عاملاً تاريخياً صانعاً لإحداثه أو متصوراً عامل الفارق الجنسي. وتميل مدرسة التحليل إلى اعتبار الجنس الذكوري اكثرقدرة على استلهام الحدث وتحريك الحواس كأليه من الجنس الأنثـوي لان الاستلهام بروح الاستلهام البدائي أو بروح الإعلال والإبدال المصححين لمقـروء مخطيء فيه، مسألة عقلية يضعف فيها الوجدان ويتفوق فيها العقل ولهذا فان زيادة الأنيميا (Anima) وهي العنصر الأنثوي مسؤوله عن زيادة الوجدان على العمل العقلي ومضعفة للاستلام الواعي للحدث بالشكل الذي يشبع رو المثال والخيالية المفرطة حـول احداث التاريخ، على عـكس ما تفعلـه زيـادة الانيمـوس

Animus وهي العنصر الذكوري في النفس التي تفوق العقل على المزاج في تقبل الحدث التاريخي كعمل عقلي(٧).

ومن العوامل التي يعيرها علم النفس اهتمامه كصانعة للحدث وفاعله في مساره عامل التكيف: (conditioning). ان هذا العامل يكاد يكون من الخطورة ما يجعله من الصدارة بمكان يهيمن فيه على كثير حوله من العوامل الاخرى. ان التكيف يمكن ان يكون تكيفاً فردياً كما يمكن ان يكون تكيفاً اجتماعياً. ان التكيف الاجتماعي هو القدرة الكامنة في المؤسسة الاجتماعية على التأقلم لظروفها بالشكل الذي يهيمن فيه الوعي الاجتماعي على مكنونات اللاوعي فيملي عليه حضوره بالكم والكيف، بالسلب والإيجاب، بالشدة والضعف وبالحدة والتزامن. وهنا تبرز معضلات عديدة أمام هذا الكيف الاجتماعي الصائر في الحشد تجاه أحداث التاريخ المعاصرة والسالفه على حد سواء. أن من أولى المعضلات المفرزه عن عامل التكيف هي بروز عنصر الطاعه الواعية، الدامغة للانا الواعية بقوانين الواقع وضغوط الظرف، المرفوضة من قبل الأنا المثالية أو ما أسميناه بـ ((اللاوعي الاجتماعي السامي)). وحين يطيع الوعي الاجتماعي حتميات الحدث وتحديداته طاعة محجمة لروح الرفض ومقننة لمجالات المحاكمة الواعية لاجزاء الخطأ في الحدث، تنحسر قوى اللاوعي الرافض لاستلام حسي خاطيء. وينشأ الصراع بعد ذلك بين عالمي الوعي واللاوعي الاجتماعي، الأول باستلامه الطوعي ليد أحداث التاريخ، والثاني برفضه للاستسلام بما يمتلكه من مثل وعالم مثال يتعارض مع الخطأ. ومن هنا تنشأ المعظلة الأخرى وهي معضلة الإحباط، الإحباط الذي يظهر جلياً في اللاوعي ناخراً فيه. وحين يتعزز الإحباط بتتابع استجابة الوعي الاجتماعي لاخطاء الحدث التاريخي، يتعزز معه عنصر الكف للقيمة المثلية لمواضيع الأشياء وبالتالي يظهر العامل الآخر أو المعضلة

الأخرى كناتج لذلك ونعني اجتزاء الشيء عن قيمته، فتصير أجزاء الحدث التاريخي أشياء بلا مواضيع أو مفرزات مادية بلا قيمة. أن كل أحداث التاريخ تشهد بأن ممارسة الضغط على مجتمع ما وتطويع اناه بقهره بغية ترويضه (تكييفه) على القبول بالمملى عليه كمسلمات، سرعان ما تكون حالة رفض في اللاوعي ينشأ عنها افتراق الحشد الاجتماعي عن الحدث بشخوصه ومواضيعه وما ذلك ألا لمجابهة اللاوعي لهذا الحدث بالرفض فيصير الحدث بأشخاصه وأحداثه ومواضيعه من قبيل الهراء الذي تمتعض ذاكرة المجتمع من تسجيله وتخليده. أن عامل التكييف على الرغم مما يحمله من إشراقة في النفوس تنبيء عن سيولتها وليونتها وتقبلها للرياضة المملاة، فانه عامل خطر في الوقت عينه. وعلى فرض أن كل المجتمع بكل أفراده اصبح خاضعاً لعامل التكيف مع الضغط البيئي، فان روح الذل الاجتماعي هي ناتج أكيد لهذا العامل. أن الحركات الاستعمارية القديمة والحديثة تمارس عامل التكيف على المجتمعات المقهورة وتروضها على قبول صياغات وقوالب خاطئة. فترسم لها نواميس سياسية وقدرية حياتية مقننة ثم تعود مجدداً لترويضها على قبول هذا التقنين. وحين يندحر اللاوعي السامي – مؤقتاً – أمام هذا القهر التطويعي للوعي بالخوف أو الأغراء، بالعقاب أو الثواب، تنخلق حالة التكيف الاجتماعي للقهر. ولكن اللاوعي يظل عقلا فاعلاً بما فيه من لصيق القيمة بالمثل والتسامي على الترويض المخطيء حتى يعلن في وقت لاحق عصيانه على عامل التكيف، وهذا هو الأساس النفسي لظهور الثورات والانتفاضات في التاريخ بكل صورها وأشكالها. أن من العوامل التي نراها جديرة بالمناقشة بمعيار نفسي في علاقتها بالتاريخ عملاً وتلازماً عامل (الاغتراب). حين ينشأ هذا العامل كمدركة عقلية أو وجدانية، لا ضير، تبرز معها حالة من حالات الانفصال والتصدع بين عالم الوعي واللاوعي مجددا. المغترب عن الجسد الاجتماعي،

مغترب عن أحداثه، وحين يكون الفرد كذلك فانه يعاني حالة احتـــشاء مخيلـــة خاصة بعالمه الخاص، المنشطر عن سلم انتمائه الاجتماعي بالزمن والمكان ويلتحق إلى عالمين: عالمه الذاتي أو عالم غريب آخر في مجتمع آخر. وعلى الرغم مما يحمله التحاقه إلى عالمه الذاتي من محنة لانه قد يكون مرشحاً كفرد لحالة من حـــالات الفصام الفكري، على الرغم من هذه الخطورة، فان خطورة التحاقه أو انتمائه إلى مخيلة غريبة بتقمص حالة انتماء لمجتمع آخر لا يمثله بالأماني ولا يجسده بالحاجـــة التي يطلب تلبيتها فيه اكبر. أن وراء ما يسميه علماء الاجتماع بـــــ ((عقـــدة الأجنبي)) في الإنسان العربي محملاً من المحامل التي يفسرها علم النفس على هـــذا الأساس. فعقدة الأجنبي هي التحاق ساذج الفرد بمجتمع غريب عليه وعلى مـــا يحمله هو او يحمله تراثه من موروثات بعد أن ينسلخ عن الـــضمير الاجتمـــاعي العام، ربما تكون هناك ظواهر طبيعية تخلق عنصر المفاضلة التي تكـــون ســـبيلاً لتحقيق الشعور بعقدة الأجنبي، ألا أن هذا، وان كان مقبولاً كحقيقة، فإنه يجب أن يؤشر كناتج إحباط سابق عليه. والاغتراب بالانكفاء إلى الذات ينشأ عنـــدما يصطدم اللاوعي الفردي بمرارة بمعطيات الوعي الساذج، فيتصومع مع الفرد بلا وعي خاص ويعيش غربته الذاتية وتصير أمامه هموم الحدث التاريخي ضرباً مـــن ضروب المهاترة والسخف. أن اشراقات التقنية والنجاح الـــصناعي الفـــائق في الغرب انشأ عنصر المحاكاة في ذهن الإنسان الشرقي ودعم ظهور الاستهجان لكل ما هو محلي أو وطني، فأصبحت عقدة الأجنبي متحولة – بفعل التسميم الـــذي مورس بتعزيز عامل التكييف المخطيء الذي اشرناه – إلى عامل حسرة فردية على التشبه. وبدل أن تأخذ عقدة الأجنبي مسارها في المنافسة والانتصار على السابقين في المضمار، أخذت مسار الشعور بالحطة inferiority complex فكان مقابـــل كل وضوح حضاري غربي إخفاق شرقي وتخلف.

أن هذا الشعور بالحطة انشأ عامل الإسقاط الاجتماعي على التـــاريخ، فرجم الفرد تاريخه، ورجم المجتمع تاريخه بوابل ارجاء المسؤوليه المباشره عن هذا التخلف إليه. فصار الاغتراب عن واقع المحنة بديلاً من عيشها وحل وتفكيـــك أجزائها في محاولة الانتصار عليها. ويكاد يكون الاغتراب العقلي اخطر أنـــواع الاغتراب. فشحن الوعي بالمعطيات الدخيلة عليه مؤثرة فيه بالسلب. والاغتراب العقلي إذا ما تحقق فانه سرعان ما يجر معه المغترب إلى حالـــة مـــن الاغتـــراب الوجداني، فيهيمن الإطار الدخيل على الوجدان ويعتم الحالة الفكرية.

أن تاريخنا المعاصر مشوه بالاغتراب الذي حقق فيـــه أعـــداؤنا حالـــة الاغتراب الوجداني العربي عن ضمير التاريخ العربي العام. ربما نستطيع أن نتخـــذ من تجربة اليابان – كمجتمع شرقي – مثلاً ناجحاً للانتصار على حالة الاغتراب. أن الياباني لم يغترب و لم يسمح لعقدة الأجنبي أن تحقق الشعور بالحطة، بل سمح لها بالضد أن تحقق فيه الشعور بالمنافسة. أن التقنية والحضارة لا تعنيان شيئاً أمام جذرهما الأول، الخالق لهما، ونعني به: الثقافة. فالمجتمع المثقـــف هـــو لا يجـــد الاغتراب بمؤثرات المعزز التقني أو التمدني سبيلاً إليه والى ذاته لانه امتلك باديء ذي بدء سلاح المقاومة الأول: الثقافة. ربما تعود بنا مناقشة عامل الاغتـــراب إلى استذكار أهمية مناقشة عامل العرق. فماذا يرى علم النفس في علاقـــة العـــرق بالتاريخ وهل تؤثر الدعوة إلى محاربة الاغتراب على مسار النظرة إلى العرق؟ أن منظور علم النفس إلى العرق هو نظرته إلى الحاصل الوظيفي لظاهرة الحشد الذي خضع لظروف تكوينه. وهذا الحشد الناتج كاستجابة جدلية لمعطيات موحـــدة للقطيع الاجتماعي، فيخلق فيه عنصر الانتماء بوسائل كلغة للتخاطب ومـــشاعر للتالف وطرائق لتحقيق الامن ووسائل لاثبات الذات وتحقيق الهوية. ولكـــي لا يكون العرق دعوة عنصرية خانقة بالحدود الجغرافية والحصار الثقافي لمجتمع ما عن

الانفتاح على غيره، يجب ان تكون الدعوة الى العرق دعوة متهاودة موازنة بين مطلبين في آن: مطلب الانتماء الى الهيئة الاجتماعية الواحدة، ومطلب الانتماء في هذه الهيئة الى حضائر البشر بأن تعطي وتأخذ. وعندما تصير تلك الهيئة الاجتماعية آخذة معطية في آن واحد، وتسقط امامها عقدة الاخذ بمرادفها: فضل العطاء. فمقابل كل اخذ من الاخر حالة عطاء له، فتزول بذلك حالة المفاضلة وتتلاشى عقدة الاجنبي ويزول الاغتراب كعامل. بهذا نجد ان من عوامل الانتصار على الاغتراب عامل العرق. ولكي لا يكون المجتمع كلياً حالة مغتربة عن المجتمعات الاخرى – كما حصل للمجتمعات الاحتكارية والامبراطوريات الدكتاتورية – يجب ان تكون عرقيتها بعيدة عن النرجسية، وبعيدة عن النظرة السادية الى الاخرين. فبذلك لا يحقق التاريخ إلا نمطاً واحداً من الاحداث ونعني به نمط الاستعلاء والازدراء الذي لا يحل مشاكل العيش الا بلغة الدماء والعنف والحروب طبقاً للنرجسية والسادية اذا لم يتم الانتصار عليهما. ان النرجسية عامل آخر من عوامل التأثير في أحداث التاريخ. فهي عندما تكون عصاباً مستفحلاً في شخوص صناعة الحدث، فان الحدث التاريخي يجيء احادي الجانب، عصابي التنفيذ، يملي فيه هاجس أفضلية الذات على الغير انهيار حضارات وسقوط شعوب ودول. والحدث النرجسي بمواضيعه كمحصلة يشكل هاجساً نرجسياً معززاً لصنع مسلسل شبيه له في أجيال لاحقة على شخوص موجدية بهذا النمط العصابي. فالأحداث التاريخية الغابرة لامة من الأمم التي تلهمها روح السيادة على الغير والأفضلية تظل عاملة فاعلة في أجيال هذه الأمم بهاجس نرجسي.

أن النرجسية النازية هي التي صنعت الحرب الكونية الثانية بصيغة الأثرة لا الإيثار لان صناع هذا الحدث الكوني الدامي كانوا عصابيين نرجسيين واجزاء الحدث جاءت اجترار سلوكياً لضغوط العصاب على فاعليه. ولو شاء الألماني المعاصر أن يستلهم – مخطئاً – روح النرجسية في شخوص النازي الصانعة للحرب

فانه سيعود متأثراً من جديد بحافز حاث على نرجسية جديدة. ولا مجال للانتصار على النرجسية إلا بدحضها بالتثقيف والانفتاح واستلهام حضارة الآخرين والتعرف إلى مشاعر آخرين وهويات ثقافاتهم. تلك في حدود نظرتنا للعوامل التي يراها علم النفس مؤثرة في صنع الحدث التاريخي والتي تحمل في كل منها صيغة ايجابية وصيغة سلبية. ويكمن مجال الاستفادة منها في كيفية توظيفها وصيغة النظرة اليها. ويرى علم النفس ان أي سوء استخدام لهذه العوامل قمين بخلق تاريخ مظلم يسمم افكار الاجيال اللاحقة في المجتمع. كما ان الاستجابة لهذه العوامل بروح استجلاء المشرق الوضاح منها قمين ايضاً بصنع احداث تاريخية تضع الانسانية على جادة النجاح والحضارة وانحسار العدوانية وانكفاء عناصر الخراب والدمار.

هوامش الفصل الاول:

١- لاجل المزيد من الاطلاع على علاقة الزمن بالحركة والضوء والجغرافية، ارجو الاطلاع علـــى كتاب ((ألف باء النسبية)): تأليف: برتراند رسل، ترجمة: فؤاد كامل.

نشر: دار الشؤون الثقافية، بغداد - ١٩٨٦.

الصفحات ٢٣ - ٣٩، الصفحات ٤١ - ٤٧.

٢- يشير الى ذلك بوال رادين (Paul Radin) في كتابه ((عالم الرجل البدائي)) ويركز على ما اسماه بالمشاركة الجماعية ضد الخوف، ويعتبر ذلك متبلورا في.

(١) الحقيقة الفيزولوجية للميلاد (ب) المراهقة (ح) المرض (د) الموت. كما يتبلور ذلك في صراع الانسان وخوفه من الطبيعة القاسية المحيطة به من ناحية وصراعة مع الانسان وصدامه معه من أجل البقاء.

انظر:

Paul Radin; The World of primitive man, N. Y. Sohuman 1953..

٣- يتساءل رادين P. Radin عن سبب اعتقاد الانسان بوجود قوى خارقة ويعزو ذلـــك الى ان عدم الامان الاقتصادي يرتبط بالخوف والاحساس بعدم الامان وهذا هو مدعاة بحث البناء النفسي الفردي او الجماعي عن ملاذ في الانتقال من الواقع الى الخيال هرباً من مرارة الواقع وحدته. انظر المصدر السابق ايضاً.

ويرى اللاهوتي الالماني رودلوف اوتو Rudif Otto في كتابه ((الجحيم)) Das Heilige ان خطل المفاهيم المعرفية التاريخية لحقيقة الايمان وظهور روح التابو يعزى الى الخوف والفـــزع والاحساس بالضعف، ومن الشعور بعدم الاهمية، ومن الاحساس الذي لم يصبح حتى لاحقـــاً في ضوء ما جاء في العهد القديم Old Testame nt، ومن اختلاط الرؤى ومن ((القهر والاجبـــار)) الذي نمى الاحاسيس تجاه مفاهيم اخرى مرتبطة بالسحر والخرافة. ان كلمـــة اســـطورة Myth اشتقت من اليونانية Mythas والتي تعني كما يظهر من الالباذة والاوذيسية انها مجـــرد الكـــلام والبيان. جاء في معجم العلوم الاجتماعية ان اساطير الاولين وما اشبهها بكلمة هستريا اليونانيـــة

وتعني القصة او الرواية او التاريخ وهي في الغالب تحتوي على احداث خارقة للعــادة. ويقــسم مالينوفيسكس Malinowski القصة الشعبية على: الوقائع التاريخية، الاساطير والقصص التي سمعها الرواة عن المجتمعات القديمة، وهي تدخل في نطاق الاساطير العلمانيــة. انظــر معجــم العلــوم الاجتماعية د. ابراهيم مذكور. ص ٣٠ - ٤٥.

٤- يقول ليفي بريل Levvy Bruhil ان الكم المعرفي او النوع المعرفي المتحقق بالتاريخ يعود الى وجود عقلية قبل منطقية Pre – logicel وان البدائيين ينقصهم الاقتراب من العقلانية الموضوعية ويرى ليفي هذا ان البدائين يفكرون على مستوى المرحله الاولى للتفكير الانسانس الــذي يقــوم اساساً على الصراع بين الذات او الانا وبين العالم الخارجي. وفي نظره ان هذا النمط من التفكير عو اساس اولى لظهور معرفة لاحقة، أي انه يقر بظاهرة التراكم المعرفي كظاهرة عاملة في التاريخ بما يجعله نافعاً للاجيال. ويذهب آشيلي مونتاجيو Ashely montague في كتابــه ((البدائيــة)) الذي ترجمه د. محمد عصفور وطبع في الكويت ضمن سلسلة ((عالم المعرفة)) عام ١٩٨٢ الى ان هناك صفات مشتركة تلازم كل انواع التفكير الانساني، وان قانون المشاركة لبس وقفاً على العالم البدائي وهو بذلك يضادد – بشيء من الاحادية – نظرية ليفي بريل في التراكم التاريخي ويعتــبر التفكير البدائي ظاهرة ملازمة للاجيال على الرغم من زمن التاريخ ويدلل على ذلك باســتمرارية ظهور او وجود اقوام بسلم معرفي بدائي معاصر بالرغم من تقدم زمن التاريخ. ارجو مراجعة هذا الكتاب في الصفحات ٢٧ – ٣٨.

٥- تميل بعض الدراسات الى عد هذه الظاهرة في التاريخ آلية نفسية شــعورية ولا شــعورية – مناصفة – اساسها الفتشية Fetishism ويعد هذا النوع دفاعاً عن امتصاص من حدث معين من قبل جيل لحدث قديم او معاصر، سرعان ما يملاه وجدان هذا الجيل بالامتلاء الحشري الكــاذب، وبذلك يكون الكذب سبباً من اسباب ظهور الميثولوجيا اللاحقة. (انظر معجم العلوم الاجتماعية – تصدير ومراجعة د. إبراهيم مذكور ص ٤٤٠ – ٤٤٩).

٦- يرى كوستاف يونغ K.G. Jung ان الحواس الخمسة هي ادوات الوعي في ادراك المحيط. وان اللاوعي مسجل خازن لكل المدركات. والحالات التي يــسجلها لا وعــي المرضــى بالرحــام ((الهستيريا)) يسجلها لا وعي الاسوياء. وهو بهذا يفصل بين الرخامي كراوية للتاريخ (الفــردي والجمعي. المعاصر والقديم) وبين السوي في الكيف فقط. فهو يعتبر ان مرويات الرحامي صحيحة

في اغلبها ولكنها مروية بمبالغة. وهذه المبالغة هي التي تحمل الخطر الحسي على رواية التاريخ. والسوي (لا الرحامي) هو الذي استطاع ان يجتاز مرحلة الصدمة اللاواعية من هيولة الاحداث فيرويها بمبالغة اقل او ربما بدون مبالغة.

أنظر:

Portable Jung: Pelican Book.

English ed. 1978

٧- الأنيما هي تشخيص لجميع الميول الأنثوية في نفس الرجل مثل المشاعر والحالات الغامضة والاحساسات الباطنية والتنبؤ وتقبل اللا عقلانية والكفاءة على الحب الشخصي. والانيموس هي تشخيص لجميع الميول الذكورية في نفس المرأة مثل العقلانية والتطرف والقرار وعدم الاستبطان والمجاهرة وروح المظاهرة والاستعداء والبذار والهيمنة والتعويض بالبطولة - كدلالة رمزية عن النقيضة - ان احداث التاريخ رسمتها أنيما انثوية في رجال تلك الاحداث فأدت الى ميل لا شعوري الى الانخذال والرضوخ وربما احياناً الى الاستسلام والانهزام بتاثير ماسوشي لذيذ. كما رسمت تلك الاحداث انيموس ذكورية حققت السيادة. وقد نجد رجالاً منكسرين تاريخياً لشيوع الأنيما فيهم ونساء فأتحات لشيوع عامل الأنيموس (الزباء، الخنساء، خولة)..

الفصل الثاني

سلطة الكلمة في التاريخ

- الاستدلال
- عامل الغرض او العامل البراغماتي
- عامل الرمز
- عامل الانابة او التقمص
- مؤثرات الكلمة البنيوية
- مؤثرات المحتوى
- مؤثرات من خارج الكلمة

إذا كان علينا أن لا نرى التاريخ بالبعدين السطحيين: الطول والعرض، لان ذلك منقصة في قراءته، فإن عمقه هو البعد الثالث المضاف لغرض إكمال صورة القراءة الصحيحة له. والرؤية ببعدين غيرها بثلاثة. وعند إضافة الغور القرائي له، تبرز الحاجة إلى الوسيلة. ووسيلة تلك الحاجة لربط هذا البعد هي اللغة. فمثلما ليس هناك تاريخ بدون لغة، كذلك ليست هناك لغة بدون التاريخ وهنا لانبحث في تاريخ اللغه بل في لغة التاريخ واول ميزة بل ربما الميزة الوحيدة التي تتوخى سبرها في إقامة علم نفس للتاريخ بلغته هي ميزة (الاستدلال). أن الرمز هو صلب لغة النفس في التاريخ واللغه بنواتها الصغرى (الكلمة) مبطلة الفاعلية اذا ما تجردت عن الاستدلال. والذي نعنيه بالاستدلال هو الحض الحرفي للكلمة في تبني الموقف التاريخي بحيث تؤدي غرضين في آن: غرض الاعانة على نقل روح الحدث التاريخي الى الشريحة المخاطبة في الحين المزامن لذلك الحدث، وغرض الاستمرارية في المفهوم بحيث لا يكون الزمن كفيلاً بطمر المفهوم البنائي لها بتعاقبه عليها. وعندما تقف الكلمة اللغوية بالمفهوم النفسي عند حدود الاستدلال المربوط بالزمن فإن ذلك لا يعني ارتباطها الزمني وعدم قدرتها على التجاوز إلي أزمان لاحقة لاستكناه مدلولها التاريخي للاحق من الناس في اللاحق من العصور. أن ثلاثة مفاهيم تستبطن مجمل اللغة في عمومها والكلمة في خصوصها كمصطلح ملائم لمجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والفن. تلك المفاهيم هي: الوصفية، التقويم، التحريض، فاستخدام الكلمة بدءا بالمشاعر المألوفة للجمهور المعايش

للحدث مرورا بالحدث نفسه يبدأ بمجالها الوصفي. وعند هذا الحد: أعني المجـــال الوصفي، تتحدد اللغة بقصور مقصود بالتصوير الفني حيث لا تتقوى في حدودها تلك ألا على المجمل الوصفي للحدث. أن علم النفس عندما يعول أهميـــة علـــى الاستدلال الوصفي للكلمة في حدث تاريخي، إنمـــا يفعـــل فعلـــه البنـــائي، لا الاحتوائي، للكلمة بما تصفه. وهنا تبرز بزة جديدة من التجريد العقلي للحدث لم يحدثه ولا يستطيع ان يحدثه الا الاستدلالِ الوصفي لكلمة معينة في حدث معين. وهذا النمط من الاستدلال يعطي كل شيء الا المحتوى. بيد ان هذا العطاء الفني للاستدلال اللغوي الوصفي لا يعد تجريداً من العاطفة، لان العاطفـــة يمكـــن ان تكون بمعيارها الوجداني صورة من صور الوصف نفسه. واذا كانـــت العاطفـــة تتطابق مع الوجدان الاجتماعي تجاه حدث سابق او معاصر، فـــإن الاســـتدلال الوصفي يعني حدودية الهيمنة القادرة، بحدوديتها، على الحاق شكل من أشـــكال مطابقة الوجدان العام للجمهور مع الحدث التاريخي. قد يبدو من هذا ان هنـــاك مفارقة بين تزامن الصورة العقلية والحدث بفعل الاستدلال الوصفي ولكنه لـــيس كذلك لان الوصفية في الكلمة لا تجرد صورة الوصف مـــن الـــشحن العقلـــي الجماهيري تجاهها. فالذي يبتغيه علم النفس لكي يكون علم نفس تاريخياً هـــو الآخذ الكامل أو التمثل الكامل للاستدلال الكلمي الوصفي بحيث تفرغ الكلمة الواصفة كل عطائها بتغطية الحدث، وتقترب، ولا تلمس، المـــداليل الاخـــرى لغرضية الاستخدام في الاستدلال الذي أشرناه باتجاه التقويم او التحريض. امـــا الاستدلال الثاني الموظف في اللغة لخدمة علم النفس في التاريخ فهو الاســـتدلال التقويمي. وهنا تدخل الكلمة مجال المحتوى الحديثي وفي الحدث نفسه تبدأ الكلمه بل قل اللغة في شرح ابعاد ذلك المحتوى منعطفة الى دقائقه الصغرى متبينة أبعاده وآليات دفاع قيامه بالاشخاص والاشياء وقبل ذلك كله بالموضوع.

والاستدلال التقويمي الكلمي قائد نير لشرح محتوى الحدث كحادث اولا ثم نزولا في العمق كموضوع له مسبباته وحيثيات نشوئه. ان التقويم لا يمكن ان يحل كاستدلال محل الوصف مثلما لا يكفي الوصف كاستدلال عن حاجة علم النفس الى التقويم. لكن التعشيق بين الاستدلالين: الوصفي والتقويمي، يعملان في آن، هو صورة من صور استدراج الحدث التاريخي الى مسرح دراسته النفسية. والاستخدام المقنن في زمن واحد لجمهور واحد في ظروف جغرافية ومدارك سياسية متشابهة بعبارة الاستدلال التقويمي لحدث باتجاه توثيقيه تاريخا هو الذي يفرز صلاحية كلمة دون غيرها كمعيار نفسي صادق أصيل. والزمن الواحد والظروف الجغرافية لا يستطيعان خلق تماثل في المدارك الساسية حتى في جمهور واحد. ولكنهما بصيغة البناء العام يجعلان تلك الكلمة الاستدلالية في التقويم اصدق من سواها لانها اقرب من سواها لغة ولانها اقرب الى مشاعر القطيع الاجتماعي وان افترقت اجزاؤه بشيء من التكيف دنوا او علوا. ففي شريحة واحدة من جمهور يبرز الافتراق الواعي بل وحتى اللاوعي، بلغة الاستبطان، لتقويم حدث يخضع له ذلك الجمهور على الرغم من وجود توحد زمني وكيف جغرافي شامل لتلكم الاجزاء المكونة للجمهور. ان علم النفس يؤكد في مجال الاستدلال التقويمي للكلمة على آلية الاستبطان. ولمن يفترض فيه انه لا يتعاطف معنا في ادراك ما نعنيه بالاستيطان، ينبغي ان نشير الى اننا نرمي به الى حالة استظهار معنيين استدلاليين لكلمة واحدة وعياً ولا وعياً في فرد واحد وفي جمهور واحد. ان حيوية الاستدلال التقويمي للغة في شرح حدث تاريخي تظهر في قدرة اللغة على توفير معجمية صامدة امام التعاقب الزمني على المدلول المستعمل لاغراض تقويم الحدث. ان هذا لا يلغي مقولة الكثيرين ان للكلمة جدتها وقدرتها على التطور بحيث تخدم استدلالا تقويمياً لحدث في حين وتخدم – وتقويمياً أيضاً –

حدثاً لاحقاً في عصر لاحق. انما المقولة تلك تظل صحيحة لان حيوية اللغة حالة مستديمة في منظور الوصف والتقويم. وعند هذا الحد ينبغي لنا ان نطالب القاريء لحدث تاريخي ان يعود الى الحدث نفسه ليقـــرأ اســـتدلال الوصـــف الكلمـــي واستدلال التقويم الكلمي وليس له بأية حال حق ان ينقل الحدث اليــه ليقـــرأه باستدلال كلمي (وصفي او تقويمي) بحالة راهنة لان ذلك غمطا لمداليل حديثـــة كثيرة يقف في مقدمتها: شخوص الحدث وأشياؤه وموضوعه ولغـــة جمهـــوره وصيرورة ظروفه الجغرافية. وبالتالي اذا جاز للقارئ ان يفعل مثل هذا الفعل، جاز له ان يحطم هيئة اجتماعية لحدث تاريخي ساهمت فيه عواملــه الـــتي تقـــف في مقدمتها الاستدلالات الوصفية والتقويمية.

يبدو ولحد الان واضحاً أثر اللغة باستدلالين: وصفي وتقويمي لحدث تاريخي فما هو الاستدلال التحريضي اذن؟ ان تبني كلمة في لغة بمعيار نفسي موجـــب لغرض استدلال وصفي وتقويمي لا يغني عن الهدف الاســـتدلالي: التحـــريض. فأحداث التاريخ بصيغها الوصفية والتقويمية جوامد تعنيها مواضـــعها ويفـــصلها زمنها وبالتالي فهي مثابات مرت عليها ركامات بشرية او اخترقها مشاعر جماهير سالفة تتناغم معها جماهير لاحقة بصيغة القطع. كل ذلك لان التحريض، دينامية كآلية نفسية، وتحريضا كاستدلال لفظي لم توفره الكلمة (على فرض توفر مثـــل هذه الكلمة وهذا ما لا يصح). فالكلمة بالاستدلال التحريضي تحمل روح الحض والاستفادة من الحدث والا تحول التاريخ إلى أشباح منهزمة باتجاه البعيد السحيق من ماضي جمهور مقطوع الصلة بلاحقه. ولكي لا تبتعد الكلمة عن التـــزامن في القدرة على استظهار الاستدلال التحريضي في الحدث، يجب ان لا تكون كلمة عجماء، طقوسية، خاصة، غريبة او اقليمية تفتقر الى شيوع معناهـــا وســـيولة موسيقاها واستساغة جدها. ان علم النفس علم سلوك يعاصر المستجد. ولكنـــه

بهذه البنية مطالب بان لا يلغي السلوك غير المستجد لانه بهــذا الالغــاء يجعلنــا مطالبين بايجاد مرادفات استدلال في كلمات تتجدد بتعاقب الحقب بمــا يجعــل التاريخ تواريخ مقسمة وهذا ما يقصد وحدة التاريخ التي بدونها لا يستفيد لاحقه من سابقه. ومع اقرارنا بأن روح العصر تملي الجديد وتطالب بالمواكبة الا اننا في ذلك امام امرين: اما الاصرار الجماهيري على المحافظة على قدرة العودة لاستبطان الحدث السحيق باستدلاله الوصفي والتقويمي والتحريضي واما استبعاث كلمة من القاموس نفسه تنوب عن الكلمة المواكبة لذلك الحدث بالاستدلال. ولا نــدري أي الامرين اسهل وامرا على الجمهور في قراءة التاريخ بيد ان الذي نعرفــه ان التوفيق بين هذين الامرين شيء يمكن حصوله. لنأخذ مثلاً كلمة ((إرتــزاق)). يحدثنا التاريخ بمفهوم نفسي جماهيري قديم ان الارتزاق كلمة شاعت في الحروب الغابرة في التاريخ نفسه. فالاستدلال الوصفي من الكلمة يقودنا الى معرفة: (١) ان حروبا حدثت، (٢) ان تلك الحروب قامت بين فريقين اجج الحرب بينــهما صراع فكري او اقتصادي، (٣) ان اطرافاً اخرى اشتركت في تلك الحرب بمنفعة لا تدخل في خصوصية الصراع ذاته. اما الاستدلال التقويمي للكلمــة نفــسها فيفيدنا ان: (١) الصراع وحده عنصر من عناصر منفعة لاطراف لا يعنيها، (٢) الارتزاق مهنة تؤديها العضلات بأجر او غنائم ينتفع بها طرف دون ان يكــون معنيا بقدسية او عدم قدسية مبدأ من المباديء في صراع قامت من اجله حرب، (٣) الارتزاق يعني قيمة معنية لصيقة بحدث يخدمها بقيادمه ويزيلها بزواله. واذا اخذنا الاستدلال التحريضي لكلمة ((ارتزاق)) بمعيارها التاريخي النفسي ذاته فاننا نقرر فيه: (١) ان الارتزاق صفة تسولية غابية، بدائية، (٢) ان الارتــزاق يتفــه مبدئية الحروب التاريخيه في كونها احدى طرائق الحلول باخفاق الحلول السلمية، (٣) ان الارتزاق صيغة غير حضارية، كفيل بالزمن الارتقائي للعقل ان يسقطها

لانها لا تحمل جوهرية المبادىء في الصراع. اننا هنا اذا طالبنا جمهورنا بقبول الامر الاول للمفهوم التاريخي النفسي للكلمة وفق الية الاستبطان، يعني هذا اننا نطالبه بالانتقال الى الحدث والرجوع اليه لكي يتقمص بفهم سلفي استدلالات الكلمة ((الارتزاق)) الثلاثة. اما الارتزاق اليوم وبعد ان اصبح علم النفس متدخلا موجبا في قراءة تاريخ الاحداث او احداث التاريخ فان تلك الكلمة تعني باستدلالها الوصفي سخرة اجناس دخيلة على هيئة اجتماعية لا تربطها بها مقومات العرق او الدم او اللغة او الوطن في حرب وفي غير حرب. وتعني باستدلالها التقويمي بقايا الغابية البشرية المستلمة من انكفاءات فجة في المسار الانساني وان مساهماتها في الحدث (كالحرب مثلاً) تعني خرقاً دولياً سرعان ما يكون مثار اعتراض من طرفي النزاع على مصادر ادخال المرتزقة في موضوع له من الخصوصية ما تجعل الارتزاق سلوكاً فضولياً. بينما يعني الاستدلال التحريضي المعاصر للكلمة بوجود مرتزقة تسيب دولة او مجتمع اندفع افراده تحت وطأة جوع وفاقة او انسلاخ وطني الى اقتطاف خبز يومي على حساب دماء مراقة في جسم اجتماعي يدافع عن بقائه. فاذا استطاع الجمهور وبمعيار نفسي صادق ان (يحترم) زمن ظهور (الاستدلال) اللفظي للارتزاق الذي استخدمناه مثالاً وان يستهلكه بالاستدلالات الثلاثة وبروح معاصرة رافضة لمفاهيمه، يكون هذا الجمهور قادراً وكتحصيل حاصل على مزج الامرين اللذين أشرنا اليهما كطرائق خيار امامه لقراءة الاحداث[1].

هذا ما يتعلق بعامل الاستدلال في الكلمة وبما يقدمه للكلمة من سلطة في الحدث التاريخي. عامل آخر تستفيد منه الكلمة في امتلاكها لسلطتها هو عامل (الغرض) او العامل البراغماتي "Pragmatic Factor" ان الشخوص التي تهدف الى ابراز ظاهرة من الظواهر كثورة من الثورات الفكرية او كانقلاب من الانقلابات الاقتصادية او كحركة من حركات الفكر في مجتمع من مجتمعاتها،

تستخدم الكلمة بالصيغة الغرضية. وتراعي هذه الشخوص علاقة الوعي الحسي للفرد بغرض الكلمة كما تلتفت الى استجابه ((اللاوعي السامي)) للعامل البراغماتي فيها. فالكلمة المجافية للاثارة او المفتقرة الى عنصر الاثارة، لا تعمل في الوعي ولا تولد في اللاوعي رداً مستفيداً منها في ربطه باستجابة عقلانية مستبطنة لروح الحدث نفسه. ان استخدام كلمة ((ثورة)) من قبل القائمين بحدث من الاحداث يفهمون ما تؤديه هذه الكلمة بزيادة ملحوظة على ما يمكن ان تؤديه كلمة ((انقلاب)) أو ((انتفاضة)). فالثورة بالتعبير البراغماتي تخاطب في الوعي موروثه الحسي نحو ما يفهمه عن ضرورات بروز الحدث وحتمية كينونته بالشكل الذي يوحي ان الغرض ليس تغيير وجوه والمجيء بأخرى او زوال أشخاص واستبدالهم بآخرين، انما تهدف الكلمة الى ان هناك برنامجا كبيرا اتخذ من تبديل الوجوه والاشخاص وسيلة لتنفيذه وتطبيقه. وهذا البرنامج المختزن في كلمة ((ثورة)) يشمل وجود مبدأ محدد وفكر سابق يستند الى ضرورات اجتماعية ومعطيات تستدعي ظهوره. وعندها تصير الثورة بالتعبير البراغماتي محتوية بالضمن على الانقلاب وتصير كلمة ((انقلاب)) جزءاً من كل شامل له وهو كلمة ((ثورة)). لنأخذ كلمة ((إله)). ان هذه الكلمة تحمل عامل الغرض في هيمنتها على حدث وفي الحديث عن حدث. فالعاعل البراغماتي لكلمة ((اله)) يبرز عندما يؤثر في وعي المخاطب بالوسيط الحسي دخل الذات العليا. ان كلمة ((رب)) على الرغم من قربها اللغوي الى كلمة اله فانها تحتمل الاجتزاء الغرضي او الانفصال البراغماتي عن كلمة ((إله)) حتى صارت كلمة رب تعبيراً غرضياً عن أشياء او مواضيع ذات مستوى أدنى من مستوى سلطة الذات العليا. فصار مستساغا لدى المستقبل الفردي او ان يسأل عن المقصود بكلمة رب. فالصيغ وتحورات الظروف استخدمت هذه الكلمة للتدليل على علاقة الرجل بأسرته

فسمته ((رب الاسرة)) أو علاقة المرأة ببيتها فسمتها ((ربة بيـــت)) او علاقـــة المشرف على عمل فسمته ((رب عمل)). والغرضية بمثل ما تخصصت بـــه مـــن مهمة، تخصصت كذلك بحصر الحركة في الكلمة. فالوعي الاجتماعي استساغ ان يجمع كلمة رب على ((أرباب)) فكانت هناك تعبيرات مثل أرباب الأسر، ربات البيوت، أرباب الأعمال.. الخ، ومثل هذا الحصر في الحركة كالتحويل من صيغة المفرد الى الجمع لم يتيسر لكلمة ((إله)) فلم يعد مستساغا أن نكون احرارا في ان نجمع ((اله)) على ((آلهة)). وحالما تحصل مثل هذه الاستساغة فان الغرضية تخرج الكلمة او تخرج الكلمة – وهذا هو الاصح – بغرضيتها بصيغة الجمع الى عمـــل اشاري مستجد كان الوجدان الاجتماعي مستقبلا لها كصيغة كونيـــة غـــابرة جعلت للكون آلهة لا الها واحدا. ومن هذا يدخل العامل البراغماتي للكلمة عامل تقنين وتحديد للحركة اللغوية وميزة التحرر النحوي فيها. ففي الوقـــت الـــذي اقتربت فيه كلمة ((اله)) من كلمة ((رب)) بصيغة المفرد في تعميم الغـــرض او البراغماتية في الحدث، ابتعدت الكلمتان عن بعضهما باسقاط الحدودية النحوية (الصرفية) عنهما في لغة الجمع فصارت ارباب استساغة لفظية لمعايير ومقاسات أرضية في حين صارت ((آلهة)) مدلولا سماوسا مثيراً إلى حدث غابر في تـــاريخ الإنسان الذي تصور الكون وقتها على شاكلة مقادة بعدد من آلهته لا بإله واحد. وفي الوقت عينه أصبحت الكلمة ذاتها ((آلهة)) تعني قطع أو حرمان المستفيد من استخدامها كعامل ظرفي معاصر كنتيجة للوعي الديني التاريخي كحدث وحـــد الآلهة في إله واباح ديمومة واستمرارية استخدام ((أرباب)) بإنزالها إلي إشـــارات لمرموزات أرضية حياتية معاشة. هذا هو ما نعنيه بعامـــل الغـــرض أو العنـــصر البراغماتي للكلمة في سلطتها التاريخية(٢).

العامل الآخر الكامن في الكلمة في سلطتها التاريخية هو عامل (الرمز). ان الوعي هو المجمل النهائي الذي خلقته آثار الظواهر الطبيعية المستلمة بالحواس والذي تعامل معها تعاملاً إدراكاً (عقلياً) وامتزج معها وجدانياً وغذى بهذا التعامل الناتج حالة اللاوعي الذي أصبح مستودعاً لذخائر الوعي الناقل لاثر المحيط. وإذا اعتبرنا الذاكرة إحصاء لا واعياً لوظيفة الوعي تلك، فيعني ذلك ان الذاكرة اللاوعية هي ذاكرة موجودة ولكنها لا تنبعث الا بالحث المحدث لحاجة ابرازها واستدعائها. ولما كانت احداث الحياة والوسط المعاش من الهيولة والكم ما يتعذر على اللاوعي اختزانه نشأت حالة الرمز في اللاوعي كصيغة من صيغ الاشارة الى ملف كامل من ملفات الاحداث. ومثلما ينضد مسؤول الإحصاء في دائرته الملفات الكبيرة على الأساس إلا بجدي إليها أو الأرقام الحسابية أو على أساس آخر يطمئن إليه ويرجع إليها في ضوء ذلك عند الحاجة إلى فتح ملف من الملفات التي يمتلكها، كذلك يستخدم اللاوعي صيغة الرمز لملفات الأحداث هائلة التفاصيل كثيرة التشعبات بمرموزات. ومن هنا نشأ عامل الرمز إلى حدث بصيغة كلمة واصبح من عوامل تدخل الكلمه في تاريخ الاحداث او أحداث التاريخ عامل الرمز نفسه لو اخذنا كلمة (بني)مثالا لوجدنا ان هذه الكلمه بعيدا. عن كل مجالات استخدامها الأخرى، تحمل عاملاً رمزياً، فما ان تذكر الكلمة حتى يذكر معها بصيغة اللاوعي المستلم لها. فهي إشارة إلى عصر سالف لا يمكن ان يتحقق في زمن انقطع الوحي فيه واكتملت النبوة. ثم هي إشارة إلى طبيعة الحدث ونعني به صياغته الدينية وقوته السماوية العلوية. وهنا يعمل عامل الرمز على ممارسه صيغه القطع الزمني للحدث. فالكلمة لا تصلح لاطلاقها على بطل من الأبطال مهما تعاظم ولا تصلح لتسميه مفكر من المفكرين بها وان شمخ في فكره، لا لأنها خاصة بطبقة من الناس حسب، بل لان الرمزية الكامنة فيها تحجم هذا

الاستخدام وتقننه بالمعيار الإشاري إلى شخص في الحدث والى طبيعة في الحدث والى علاقة سماء بأرض في الحدث. وتقودنا الرمزية إلى محاكاة التوزيع الجغـــرافي لأحداث التاريخ شخوصا ومواضيع. فيكون الرمز في الكلمة محـــددا لـــسلطتها ومقررا لاستدلالها الجغرافي في التاريخ. ان كلمة ((هوميروس)) تحمل فيها رمـــزا سريعا إلى نقل المخاطب إلى جغرافية المتحدث عنه رأساً إلى اليونـــان. فيـــذهب المخاطب بتصوره الكامل إلى جغرافية الأحداث. فيكاد ملحق الكلمة (EUS) ان يختص بالرمز التذكري في اللاوعي ومنشدته ان يستل من الخزين ملفا من ملفات ثقافته عن اليونان. ومثل ذلك ينطبق على دلالات لفظية أخرى مثل (براهما)) و ((تسن)) و(جانيه)و ((بريجنسكي)) و ((محمد)) (ص)((كارل)) و ((عمـــر)). فحال ذكر كلمة من تتلك يبرز عامل الرمز مرادفا للانتقال فيهـــا إلى الرقعـــة الجغرافية التي مورس عليها الحدث ويستتبع ذلك كل مفردات المعرفة لكي تتوفر أرضية خاصة لتصور الحدث كاملاً[٣].

نود ان نناقش عاملا اخر من عوامل سلطة الكلمة في الحـــدث التـــاريخي، عامل (الانابة) Figuring او ما نعنيـــه في علـــم الـــنفس بعامـــل الـــتقمص identification ان دراساتنا للتاريخ بمعايير نفسية حثتنا على الالتفـــات الى ان الكلمة يمكن ان (تنوب) مناب نقل حسي كامل لحدث تاريخي الى جمهور مـــا. وعندما تستطيع كلمة واحدة ان تتخصص بالاشارة الى حدث مـــن الاحـــداث بحيث تشتمل هذه الاشارة على طبيعة الحدث وزمنه وقدرته على الاســـتمرارية مؤثراً في اذهان ووجدان الاجيال، يكون ذلك مؤشرا من مؤشرات سلطة تلـــك الكلمة في التاريخ. فلو اخذنا كلمة ((دين او دينية او ديـــني)) في الاشـــارة الى حدث من الاحداث فإن هذه الكلمة ولوحدها فقط تستطيع ان تنوب عن كثير من التفصيلات التي يحتاجها المتحدث لتناول الحدث. فهي (الكلمة تلك) تـــشير

بالضمن الى ان طبيعة الحدث المقصود طبيعة دينية وانه محدد بزمن ظهور ذلك الدين او نقطة زمنية على مسار ظهوره وتدرجه في اللاوعي الاجتماعي كما انه سيتوضح كونه حدثا صغيرا او كبيرا او مقطوع الاثر.. الخ. فذكرنا للخوارج الهم جماعة ((٠دينية)) سيحدد بالانابة ان الحركة دينية اصلا والها لا يمكن ان تكون خارج الجسد الاسلامي والها غير سابقة عليه والها غير اقتصادية او سياسية.. الخ. واذا قلنا في حدث اخر قولا اخر نستخدم فيه كلمة مثل ((وجودية)) فان هذه الكلمة وحدها ايضا تستطيع ان تنوب في ذهن المستمع عن تفصيلات كثيرة وان توحي له بتغيير كل مسار تفكيره او مجمل تصوره الى التروع الوجودي للحدث والى شخوصه والى زمن ظهوره المحدد بزمن ظهور الوجودية كحركة من حركات الفكر. والانابة كعامل لا تعدو كونها عامل تقمص كما قلنا. فعلى الرغم من كونها كلمة واحدة الا الها تستطيع ان تتقمص موقفاً كاملا لحدث كاملٍ بموضوعه وشخوصه وطبيعته وزمنه.

بعد ان ذكرنا أربعاً من العوامل الرئيسة الكامنة في الكلمة والخالقة لسلطتها في الحدث التاريخي ونعني بها: الاستدلال والغرض والرمز والتقمص، نذهب إلى مناقشة ما يراه علم النفس الاجتماعي من مؤثرات يمكن ان تعمل سلبا أو إيجاباً في تحقيق هذه السلطة للكلمة. وإذا ما استطاعت الكلمة الخلاص من الجانب السالب لهذه المؤثرات في عملها، فإلها تبقى في مصاف المقتدر الفاعل في وصف وتقويم الحدث والاستفادة من عنصر التحريض فيها باتجاهه. ونود ان نقسم هذه المؤثرات على قسمين رئيسين:-

١- مؤثرات في الكلمة ذاتها: وتشمل تلك:-

أ- المؤثرات البنيوية أو الشكلية[٤]: ونعني بها الإطار الخارجي للكلمة دون المحتوى، وقدرة الكلمة بلغة التصوير الفني والإيحاء البنائي لها في علاقتها بالحدث. ومن هذه المؤثرات:

(١) **الوضوح**:- كلما اقتربت الكلمة في إطارها من موروثات الوعي الفردي أو الجمعي وضوحا في الشكل وسلاسة في الاستعمال والالفة الملازمة لذاكرة اللاوعي، زادت سلطتها في الهيمنة على الحدث التاريخي فعلاً وتأثيراً. ووضوحها يتعلق بكونها احدى كلمات الميثولوجيا او مفرزات الثقافة العامة المتداولة من قبل العدد الاكبر من الجمهور. ومعجمية الكلمة وصعوبة مفردها سالب في ايضاح وتوظيف سلطتها تلك.

(٢)**التقنين**: كلما اقتربت الكلمة من قدرتها على التحديد الوصفي والشكلي للحدث، كانت مؤثرة في الحدث وفي الوعي المستلم له. وعلى عكس ذلك فإن استخدام كلمة تحمل شكلاً من اشكال التعميم بحيث تتداخل مع غيرها ويشوش كثيراً من خصوصيتها ودقتها في الاستخدام. فكلمة ((نبي)) غير كلمة ((رسول)) وكلمة ((ثورة)) غير كلمة ((انتفاضة)) وكلمة ((غضب)) غير كلمة ((هياج)) وكلمة ((عدوانية)) غير كلمة ((حقد)). وعندما نخصص الكلمة في الاستخدام فإننا بذلك نقيم حدودا فاصلة لاشكالها بعضا عن بعض بالشكل الذي يخدم دقتها في الحدث وبالتالي سلطتها في ممارسة التاثير.(٣)- الشمول اللفظي: عندما يتم تقنين الكلمة كما ذكرنا في الفقرة (٢) فاننا ملزمون بمراعاة الشمولية اللفظية فيها بحيث تفيد تلك الكلمة في تغطية اكبر عرض وصفي شكلي للحدث. فعندما نستخدم كلمة ((رسول)) فاننا في الوقت الذي قننا فيها خصوصيتها فاننا

منحناها قدرا كافيا من الشمول. فقيامها مقام كلمة ((نبي)) تقـنين وقيامهـا بافادتنا ان الرسول نبي بالضمن، مخاطب بالوحي مستلم لكتاب سماوي، ناقـل لفكر ديني، مرهون برفض او قبول واضطهاد او مطابقة، كل ذلك شمولية لفظية لها في الوقت ذاته.

(٤) ـ **الجودة الاستدلالية:** ان الشكل الجيد للفظ الكلمة خـادم لـسلطتها في الحدث، وبعكس ذلك هبوطها الشكلي البنائي. فعندما اراد القرآن ان يـصف قسمة بين الاله والبشر استخدم كلمة ((ضيزى)). ان هذه البنية الرائعة الجـودة لكلمة جمعت الضاد والذاء وهما حرفان يختلفان باجتماعهما ازيزا لفضيا وصريرا تحت اسنان المتكلم، توفيق هائل في توظيف الجـودة اللفظيـة في اشـاعة روح الامتعاض والتقزز من طبيعة هذه القسمة الجائزة. وعندما اراد القران ان يـصف بعض احلام الحالمين بانها ((اضغاث))، استفاد من هذه الجودة اللفظيـة لكلمـة ((ضغث)) ببنائها المتعكر، المحتدم في الاشارة الى حدث يبغـي القـران تتفيهـه وتسخيفه. ومثل ذلك كثير من الاستخدامات للكلمة في وصـف الاحـداث والمطارحات. وكلها تدخل في سياق واحد هو ان الجودة في الكلمة بالمعيار المدل على الغرض منها يخدم الاخذين بها في سبر غور حدث ما.

ب ـ مؤثرات المحتوى[٥]: ونعني بذلك ما يلي من الامور:

١ ـ **جنس الكلمة:** تنقسم الكلمات المستخدمة حسب قدرتها على التعامل مع الوعي على كلمات عقلية وكلمات وجدانية. وعندما توظف كلمة في محتـوى وجداني للحديث عن جوانب عقلية في حدث ما او عندما نوظـف كلمـة في محتوى عقلي للحديث عن جوانب وجدانية في حدث ما فاننا نبطل سلطة الكلمة في الحدث ذاته ابطالا احتوائيا. فعندما نناقش مسألة تاريخ ظهـور الحركـات

الادراكية للعقل في منظور الفلسفة في عصر التنوير، فان الكلمة المستخدمة يجب ان تكون وبالضرورة ذات محتوى عقلي. فاستخدام كلمات (الادراك)، (الانتباه)، (القياس)، (الذاكرة)، (الذكاء)، ياتي موفقا في عطاء هذه الكلمات فرصتها في ابراز سلطتها في مناقشة الحدث، ولا تنفع في هذا المجال استخدامات اخرى كـ (عاطفة)، (مزاج)، (مشاعر)، (هاجس).. الخ. لانها وبالمحتوى الوجداني لها تسقط كسلطة في الاشارة الى حدث من هذا النوع (العقلي).

٢ ـ **الدينامية**: الكلمة التي يستطيع الحدث ان يقطعها عن الوعي ويحصرها كوظيفة في زمن ظهورها بحيث تعجز عن الاستمرارية كناقل للحدث، تكون كلمة عديمة الدينامية وبالتالي فاقدة لسلطتها في ابراز روح الحدث واجزائه. والكلمة بلغة الدينامية ولكي تجتاز محنة الانقطاع وتبرز عنصر الدينامية فيها وحالة الحيوية يجب ان تجتاز بذلك صعوبة الظرف الجغرافي والتقني (التبدل الميكانيكي) للمجتمع. ولدينا كثير من الكلمات التي كانت حية في زمن احداثها ولكنها ماتت بموتها وانقطاعها عنا لعدم قدرتها على اختراق الزمن والوصول الينا بالقدر الاحتوائي الذي يعيد توظيفها من قبلنا او في الاقل قدرة قصورها كخادمة لذلك الحدث. فلو اخذنا كلمة ((طعن)) فانها مفيدة في احتواء حدث حربي غابر يوم كانت وسيلة القتال السيوف والرماح والنبال ولكن روح العصر الذي استبدل السيوف والرماح بالطائرات والمدافع ابطلت هذه الكلمة وحصرتها في زمن الحدث نفسه. فالطائرات والمدافع لا تطعن ولكنها تقذف ومثلها كلمة ((درع))، فحين كانت تعني الترس الذي يرتديه المقاتل على صدره وقاية من طعنات الرماح، تحورت الى ((دروع)) فصارت كلمة احتوائية لمعنى ((دبابات)) لا تقي صدر احد وانما تقي مسار افواج كاملة من الجيوش. وكلمة ((منجنيق)) تخدم محتوى حدث غابر يستذكره الجيل المعاصر بصعوبة تقلل منها كثيرا مقارنتها

بالمدفع وما شابه. ومثل ذلك كلمة ((ثالثة الاثافي)) فحين لم يعد لموقد النار والاحجار الثلاثة التي ينتصب عليها القدر قدر من الوجود والمعاصرة اصبحت مقطوعة الدلالة الاحتوائية وصارت معجمية الاستعمال تحتاج الى شراح في اللغة يبصرون جيل المطابخ الغازية والشوايات الكهربائية بمعناها وداعي استعمالها. ولهذا فكلما احتفظت الكلمة بديناميتها، احتفظت بسلطتها في الحدث الذي تدخل في مفردة فاعلة.

٣ ـ **موقع الكلمة في اللغة**:- يؤثر موقع الكلمة في اللغة تاثيرا واضحا في ممارستها لسلطتها في الحدث التاريخي. والكلمة الفعلية غير الكلمة الاسمية في السلطة. والكلمة بصيغة المبالغة غيرها بصيغة اسم فاعل او اسم مفعول نائب عن فاعل. فمثلا قولنا ((حدث وضاء)) غير قولنا ((حدث مضيء)) وقولنا ((جيش جرار)) غير قولنا ((جيش كبير)) وقولنا ((هجم)) غير قولنا ((حاول الهجوم)) وقولنا ((سيطر)) غير قولنا ((حاول السيطرة)) وقولنا ((آمنوا)) غير قولنا ((حاولوا ان يكونوا مؤمنين)). كما تلعب صيغة منتهى الجموع كشكل احتوائي وكموقع اعرابي للكلمة لغة دورا يختلف عن جمعها على اشكال اخرى. فقولنا ((رجال)) غيره في ((رجالات)) او ((اراجل)). وقس على ذلك من القدرة الحسية لموقع الكلمة في الوعي الاجتماعي لما لسواها من اثر لغةً.

٤ ـ **الشمول الاحتوائي**: كلما كانت الكلمة شاملة، احتواء، لاكثر من معنى، كانت فاعلة اكثر في الحدث المتناول وافتقارها إلى الشمول أو اقتصارها على محتوى واحد يفقدها الكثير من سلطتها المتوخاة. فلو أخذنا كلمة ((شهيد)) مثالا للاحظنا القدر الاحتوائي لشمولية الكلمة، فهي تحتوي على (١) حدوث معركة من المعارك او موقف من مواقف الفداء، (٢) مبدئية هذه المعركة أو الموقف

وقدسيته، (٣) موت رجل مؤمن بمبدأ هذه المعركة، (٤) قدسية هذا الموت ونبله. فاربع نقاط احتوئها كلمة واحدة مؤشر حي للكلمة في سلطتها التاريخية.

٢ - مؤشرات من خارج الكلمة: ونود هنا ان نناقش بعض المؤثرات الاخرى التي تعمل عملها في الكلمة مخضعة سلطتها للزيادة او النقصان وبالسلب او الايجاب.

من هذه المؤثرات:-

(١) الوعي الاجتماعي: ان وعي المجتمع او الحشد بالمعيار العقلي والمعيار الوجداني هو المستقبل الاول للكلمة المستخدمة وبالتالي هو الخاضع الاول لسلطتها في رسم صورة الحدث المطلوب. وتمثل الكلمة القريبة المستساغة من قبل الوجدان الاجتماعي العام او الكلمة التي تتناغم مع المتطلبات السامية للوعي سلطة كبيرة في الممارسة التاريخية.

فالكلمة الدينية المتخصصة جدا في نمط ديني قد لا تجد صداها وأثرها في الحديث عن حدث ديني لا يمثل دين ذلك المجتمع. والمجتمع المسيحي لا ينشحن عقلاً او عاطفة بكلمة ((خليفة)) او ((امام)). والمجتمع الاسلامي لا ينشحن بكلمة ((قديس)) او شماس)). وكلاهما لا تشحنهما كلمة ((براهما)) او ((كريشنا)). ان هذا لا يذهب بنا الى تصور ان مثل هذا الانشطار الوجداني في ضمائر المجتمعات يمكن ان يكون هوة عميقة تندفن فيها روح الاخاء ولا يعتبر هذا الانشطار سدا مانعاً لقيام علاقات المجتمعات بعلائق لها موضوعها الآخر من الترابط. ان الحديث هنا هو عن الالتصاق المباشر بين الكلمة وقيمتها في خصوصية وعي معين لحدث معين لا غير.

(٢) **الوسيلة**: تلعب وسيلة استخدام الكلمة دورا كبيرا في تحديد سلطتها ومسؤليتها التاريخية. والدقة في اختيار الوسيلة الإعلامية للكلمة هي خدمة للكلمة ذاتها وخدمة للحدث نفسه. ومن وسائلنا الإعلامية ما هو مسموع كالمذياع او مرئي مسموع كالتلفزة او مقروء كالصحف والكتب. ومثلما تحدد الوسيلة قدرة الكلمة على العمل، كذلك تحدد الكلمة قدرة الوسيلة على العمل. فالكلمة المسموعة قد لا تفيد ان تكون كلمة مرئية والعكس صحيح. أن أي خطأ في مزامنة الكلمة وما يصلح لها من وسيلة مؤثر سالب في سلطة الكلمة.

(٣) **ثقافة المجتمع**: على الرغم من تشددنا الكبير في عدم السماح لانفسنا أو لغيرنا بالابتعاد عن اللغة السليمة الفصحى لمجتمع من المجتمعات لأنها وسيلة وعيه وعنصر تماسكه، إلا أن الاستخدام لبعض التساهل في الدارج من الفولكلور الكلمي أو اللهجة المحلية قد يخدم إيصال قوة الكلمة وسلطتها بالإطار المحلي (اللهجة) اكثر مما تقدمه الكلمة الفصيحة.

ان القدرة على المزاوجة بين ما يفهمه العامة وبين ما يتطلبه الحدث من لغة عالية المقام تستوجب اختيار كلمات اوسطية (بلغة التعبير عن الموقع التسلسلي على فرض وجود حد اعلى للجودة الفصحى وحد ادنى للرداءة وحد اوسط للمزواجة). وتخدم اللهجات المحلية في التمثيليات الاذاعية والتلفزيون والمسرحيات في نقل صور الاحداث بقوة كبيرة. ان هذه ليست دعوة للذهاب الى اللهجة ولكنها محاولة تناغم مع الضمير العام للفولكلور الذي قد تخدمه كلمة لهجة لا كلمة لغة. ويبرز ذلك جليا في الانتفاضات والثورات الوطنية حيث تغازل الكلمة الدارجة مدارك الجماهير الغاضبة بسلطة لا تقل عن سلطة الكلمة في اللغة[٦].

أعتقد اننا استطعنا ان نضع بعض اللمسات الممكنة فيما يراه علم النفس في علاقة الكلمة بالحدث التاريخي وسلطة الكلمة في هذا الحدث. ان اهمال دور الكلمة في الحدث ابطال لمهمة نفسية كبيرة كانت اللغة عموماً والكلمة خصوصاً ركيزة كبرى من ركائزها.

هوامش الفصل الثاني:

١ – يتبنى روبرت لي باج Robert Le Page فكرة ان كل فرد يقوم بابداع انظمـــة ســـلوكه الكلامية بحيث يتماثل وانظمة الجماعة او الجماعات التي يود ان ينتمي اليها. ويرى روبـــرت ان ذلك يتحدد بقدرته على تحديد هذه المجموعات، وقدرته على ملاحظة وتحليل انظمتها السلوكية، وان تكون دوافعه قوية الى حد ينتقي فيه ويكيف سلوكه ويطوعه لتلك الانظمة. ان ما ذهب اليه لي باج يعني ان الاختيار المتجدد لاستدلال الكلمة واضافة روح المعاصرة وارد الا ان فعل الكلمة او محاولة تبصر اثرها في الحدث التاريخي تلح على قارئها في تقمص روح الحدث ليتمكن بعدها من الفهم. ويذهب دوايت بولنجر Dwight Bolinger الى انه ليست هنالك حدود للوسائل الـــتي يستطيع بها الناس ان يجتمعوا في شكل مجموعات وذلك من اجل الاحساس بـــالامن والمكـــسب والمتعة والعبادة، وبالتالي فليست هناك حدود لعدد ونوعية الجماعات الكلامية القائمة في مجتمـــع بعينه. او بولنجر هنا يعطي مداليل لا حصرية للاستدلال ويعتبر ان الاستدلال في الكلمة عامـــل قدرة فردية وبالتالي عامل تمايز فردي. أي ان ما يراه فرد يراه غيره بصورة مغايرة وان اجتمعنا في زمن ووضع اقتصادي وفكري واحد. ان بولنجر غير متعاطف مع الاثر الاستدلالي للكلمة طالمـــا كانت خاضعة للاجتهاد والنظرة الفردية. ويختلف جورج كلاوس في ذلك مع دوايت بولينجر كل الاختلاف فيعتبر ان اختلاف النظرة الفردية للكلمة في استلالها تدليل على سعة الاستدلال لا على ضيقه.

انظر: D. Hudson

Socioliguistics

Cambridge univ. press. 1980.

٢ – يؤكد بعضهم على ان عوامل عديدة تدخل في غرضية الكلمة و فعلها التاريخي وفـــق هـــذة الميزة. ومن هذه العوامل التي يراها هذا البعض عامل المكانة perstige فالكلمة لها مكانة ذهنيـــة ووجدانية، وسرعان ما تبحث هذه المكانة عن حيز، يعني هذا ظهور عامل اخر هو الحجـــم size ومن مزاوجة هذين العاملين ((المكانة)) و ((الحجم)) يبرز عامل ثالث هو عامل الفهـــم المتبـــادل "Mutal inteligebilty"، يعني هذا ان هناك عاملا اخر سيكون نتيجة للفهم المتبادل هو عامـــل

الاستخدام المتواضع "popular usage" ان هذه العوامل التي اشرها بعض الباحثين في غرضية الكلمة تعني مجتمعة ان هناك صلة تراكمية في الكلمة على طول المسلسل الزمني وان الفرضية لا تستخدم الزمن الا بالاطار الذي يقسمها على مداليل تعنى مقطعياً بالاحداث. في ضوء ذلك فان الغرض في الكلمة يلتقي مع الحدث روحاً وينفصل عنه زمنا. ان هذا الرأي الذي ابرز هذه العوامل في الغرض او البراغما في الكلمة راي مطروح للمناقشة من جديد. وارجو لاجل ذلك مراجعة آراء جيليان سانكوف Gillian Sankoff وهاجين Haugen وجارفين وماثيوت Garium & Mathiot وماثيوز Matthews.

في مجموعة اعمال متفرقة طبعت ضمن:-

Pelican Books 1975, 1977,1978.

٣ - يقودنا هذا الى مناقشة النظام التحليلي الذي ابتكره جوشا فيشمان Joshua Fishman والذي اطلق عليه نظام المجالات Domains

انظر:

Fishman J. : Psycholiguestice, London, 1965.

ولا بد بعد مطالعة ما قررناه في موضوع الرمز في الكلمة كوظيفة وما قدمه فيشمان ان نقرر من جديد ان عالم اللغة الاجتماعي والتاريخي قد يتعلم الكثير من علم النفس المعرفي Cognitive psychology وعلم اللغة النفسي Psychilinguestic.

ومن الضروري ان نعرف ان اية محاولة للفصل بين المداخل النفسية والاجتماعية والتاريخ فيها قد يكون مؤذياً بالقضايا النفسية والقضايا التاريخية على حد سواء.

٤ - يرى مارتين وبراداك وايليوت في أبحاثهم عام ١٩٧٧م، اننا لو أدركنا نوعية وكم المعلومات الاجتماعية والتاريخية التي يمكن ان نحصل عليها بوصف الكلمة مهادا او وعاء لذلك، لتجنبنا التصورات المخطئة بأن اللغات وكلماتها انظمة محكمة كاملة من القواعد، مغلقة على ذاتها. ويدخل في ذلك نحويتها Grammaticality وتكوينها Formedness ودرجة قبولها (Acceptaboility) فهذه المعايير في شكل الكلمة او بنائها لا تعكس خصائص تراكيب بعينها حسب، بل تعكس ايضاً الخلفية الاجتماعية والكم التاريخي في الحدث الذي تصوره او تنقله

شكلياتها الى الجيل اللاحق.

ه – ان الحديث عن الأثر الاحتوائي او اثر محتوى الكلمة في الحدث التاريخي يقودنا الى دراسة قدرة احداث الاتصال التاريخي من قبل الكلمة في الحيز الاجتماعي والضمير الاجتماعي الذي تنقل عبره مفردات الحدث. فينشأ عن ذلك للكلمة بهذا النوع من التخصص الوظيفي ما نسميه بـ ((الجماعة الكلامية)). يقول تشارلز هوكيت Charles Hockett عام ١٩٥٨: تقوم كل لغة بتعريف جماعتها الكلامية وهي اية جماعة من الناس يتصل بعضهم ببعض مباشرة او غير مباشرة عن طريق شيوع الكلمة بينهم. ويقول ليونارد بلومفيلد. Leonard Bloomfied. في كتابه ((اللغة)) عام ١٩٩٣: ان الجماعة الكلامية هي مجموعة من الناس تتعامل وتتصل عن طريق الكلمة. ويتعامل جون جمبرز John Gumperz مع مشكلة صلة الحدث عبر الكلمة ومحتواها كما يلي: الاحتواء اللغوي يعني شمول مجموعة اجتماعية او مجموعة احداث تاريخية بالنقل الحسي عبر احادية Monolingual او تعددية Multilingual وهو بذلك يعين اهمية المحتوى لكلمة واحدة او كلمات تفقد هيكلها البنائي لتذوب وكأنها كلمة او مقطع لفظي واحد معبر عن حدث تاريخي.

٦ – قامت دراسات عديدة في مجال اللغة واللهجة، ولو اخذنا في الاعتبار اختلافهما المستند الى الاختلاف الجغرافي او وجدنا فريقاً من الدارسين يقرر اهمية الاختلاف الجغرافي في تعزيز اثر اللهجة كما يقول بذلك بلومفيلد Bloomfield وترجيل Trudgill وسانكوف Sankoff ولاجل ذلك قام علماء اللهجات في اوروبا وامريكا بدراسة التوزيع الجغرافي لمختلف الوحدات اللغوية. بينما نجد فريقا اخر يعتبر أن الأثر الجغرافي غير مؤثر في اللهجة بما يبطل أثرها أو يقلل من دورها في نقل الحدث التاريخي، فهم يقولون (اتباع هذا الفريق) أن اللهجات لا تستند في توزيعها إلى عامل الجغرافية، ودليلهم في ذلك عاملان: عامل التحرك الجغرافي: حيث يحمل سكان المنطقة لهجتهم ويحملون معهم الأثر اللغوي بدون الانصياع للمؤثر الجغرافي الجديد. ثم عامل آخر يقول أن اللهجة هي التي ترسم الصورة الجغرافية وهذا العامل الأخير واهن تجاه الحقيقة التي تقول ان ظواهر الجغرافية هي الصانعة للتاريخ بشخوصه ولغة أصحابه ومواضيعه.

الفصل الثالث

الوظائف الوجدانية وقراءة التاريخ

- التاريخ الوجداني
- التناغم والتعاطف
- الردة الوجدانية
- التقمص
- الاستبطان
- الإسقاط
- معاقبة الذات
- عقدة المجتمع الصناعي
- الاكتئاب والتاريخ
- آلية الاضطهاد
- العظمة والتاريخ

إذا كانت المسألة في أي مجال دراسي أو بحثي تحديد مهمة فان المهمة المضافة إلى اهتمام علم النفس هي مسألة الوجدان البشري. ربما كان هذا صادقاً على صعيد المقارنة مع غيره من العلوم مثلما يكون دائماً صادقاً وصميماً على صعيد الإحصاء. فهذا العلم المستوعب لمسار السلوك الفردي والجمعي بصيغة العقلية لا يفصل صيغة الوجدان لا كضمير خاص ولا كضمير عام مرادفاً أصيلاً للعمل الفكري. ان الحديث عن المشاعر والهواجس والمزاج ووظائف الحضنرة اليومية المتناوبة في يوميات الفرد والمجتمع ليس حديثاً فضفاضاً ينسحب عليها انسحاب البطر والترف، بل هو حديث معاناة تخضع للتقنين والأختبار ويتبع في قياسها أصل أو أصول مختبرية ملموسة .ولكي نقرأ التاريخ في دائرة ضوء نفسية يجب أن نفهم وجدان التاريخ نفسة في شعب من الشعوب أو أمة من الأمم بدءا بشخوصها ومفرزات سلوكها الفردية. واذا كانت الفلسفة كوجه من وجوه المعرفة قد انشغلت او شغلها العقل كمدركة مثالية او واقعية بالقدر الذي صرفها او انصرفت به عن استبار معضلة الوجدان المرافق للعمل العقلي، فان علم النفس وفي ادق مراحل تلاحمه مع الفلسفة لم يهمل المنحنى الوجداني المصنوع من تقاطع محوري العقل والهيئة الاجتماعية. قبل كل شيء نريد ان نقرر وجود او عدم وجود ما يمكن ان نسميه ((التاريخ الوجداني))[1]، فهل تسمح دائرة علم النفس بمثل هذه التسمية؟ ان ما يعنينا من التاريخ هو ما هيأت احداثه بالاستدلال التحريضي الذي اشرنا اهميته في الحديث عن سلطة الكلمة فيه، تلك الماهيات التي

اصبحت ركاما يثقل الزمن بالحمل والمتزامن تعاقباً بالتصور اولاً والاستفادة سلباً او إيجاباً ثانياً. والتاريخ المروي (على فرض توافر رواة ثقاة) والمكتـوب (علـى فرض توافر كتبة ثقاة) هما صورتان للحدث بلغة التجريد المقبولـة في السـياق المعرفي عن نوازع وميولات المحدث لذلك الحدث شخوصاً او أشياء او مواضيع. وبعد ان يتم القبول الجماهيري في زمن ما لها تين الصورتين (المروية والمكتوبـة) تبرز مسألة الوجدان الذي يملكه الجمهور مجمـلا نهائيـا لمعاشـه الاقتـصادي والسياسي والثقافي والذي سرعان ما يسقطه على ذلك الحدث بالقبول لما يتلاءم مع وجدانه وبالرفض لما يتعارض معه.

واذا كان هذا هو الحاصل في مجال بحث وجدان شريحة من الناس فما هو المطلوب من احداث التاريخ بالمقابل لكي تحقق الظفر (بتعاطف) وجدان القطيع السامع او القاريء لها. اننا نعتقد ان وجدانا معنيا حاصلا في جسد التاريخ ذاته قمين بأن يتحقق لكي يحقق هذا الظفر المنشود. بقي لدينا شك نكـاد نـتلمس خيوطه في ذهن القاريء عما يمكن ان يكون مطلوباً بالتحديـد مـن كلمـة ((وجدان)) في مضمار حديثنا هذا. ولكي نخرج من شكنا او نخرج القاريء من ظننا به ذلك، نود الاشارة الى المعني بالوجدان تخصيصاً في علاقته بالتاريخ فنقول انه حالة التناغم النفسي الجبلي والصورة الفطرية المتوجهة بأصـحابها بـصدق المشاعر والاحاسيس المدفونة بلغة تراثية لا تعاني من قطع زمني تـصل بهـم الى صورة من صور التقمص كآلية الى العيش روحا ووعيا ومخيلة واستلهاما واستقراء للحدث ذاته. وهنا يتوجب على الوجدان الجماهيري (الجمعي) والفردي الانتقال الى الحدث نفسه كبناء جاهز اكتسب صورته وتمت معالمه واصبح مسلمة لها من الوجدان ما يكفي لاستلامه والتعاطف معه كصيغة اعلى من صيغ التعاطف مـع وجداته المتمثل بمفرداته من الاشخاص والمواضيع. ان اخطر مهمة يؤشرها علـم

النفس في المعاصرين في قراءتهم للتاريخ هي مهمة التفريق بين حالتين من حالات الوجدان الاجتماعي. الحالة الاولى هي حالة التناغم Empathiso state. الحالة الثانية هي حالة التعاطف Sympathetic atete[٢]. ان الحالة الاولى (التناغم) تعني ضمن ما تعنيه القدرة الفردية او الجمعية على تصور وجدان شخوص الحدث التاريخي ومواضيعه دون ضرورة تبنيه بصورة التماثل او المناظرة اخذا بحقيقة المتغير الظرفي للحياة جغرافية واقتصادا وعلاقات وعلوما، ذلك المتغير الذي يملي على اللاحق غير ما يمليه كما وكيفا على السابق من تلك الشخوص او المواضيع الخالقة لحدث مضى وانقضى. والحالة الثانية (التعاطف) تعني صورة استحواذ الحدث التاريخي على وجدان قارئه او سامعه بالكل الشامل بحيث ينتسخه وبالتالي يشوهه ويحيله صورة مطبوعة له آخذة منه بشكل مبطل لكل قدرات الابدا والخلق والتطوير فتصير الحالة نقلاً سلبياً فجا للتماثل، فتسقط صيغة المناظرة وتسقط معها القدرة على التحوير بما يخدم المستجد الذي يتطلبه المتغير الوظيفي الذي ذكرناه. لقد كان صحيحا ان لكل معلول علة في التاريخ ولكنه ليس صحيحا ان الوجدان المصاحب للمعلول الناتج من علته واحد مقنن لا يتغير ولا يتطور. ربما نكون الان بحاجة الى الاقتراب من تناول امثله لحوادث تاريخية، مثالا لا حصرا، لتوضيح صورة مفارقات القراءة الوجدانية لتلك الاحداث على صورها او حالتها (التناغمية) المشرقة لا (التعاطفية). ان ظروف ظهور دين من الاديان تختلف في حاجتها إلى الحالة الوجدانية للفرد والمجتمع عن حاجتها لتللك الحالة في الفرد والمجتمع بعد استقرار ذلك الدين واستتبابه،كائنا ما كان، في الجسد الاجتماعي، الوريث الشرعي لذلك الدين، وبالتالي فحالة الوجدان مختلفة بالحتم والضمن. فالوجدان الفردي والجمعي (المشاعر والأحاسيس والفولكلور والتصور الباطن للغيب) في زمن ظهور الدين يحتاج كما وكيفا كبيرين بغية

التطور والتأقلم مع الجديد المطروح (الدين). فعلى الرغم من ان قبـول حركـة جديدة يعني قبولاً فكرياً جديداً ثم ابتناء عقلياً، إلا ان حالة الوجـدان يجـب ان تكون على استعداد منها للتلازم مع المحتوى العقلي لقبول الصورة الجديدة. وحين تفرز حاله الظهور حالة صراع بين روح الابقاء علـى القـديم وروح القبـول بالجديد، صراع يمكن ان يتخذ أي شكل من اشكاله العنيفة كـالحرب والـردة والانتفاضة والاضطراب في الجسد الاجتماعي الذي عليه ان يتغير ليتقبل الجديد، تنفرز معها حالة وجدان مهتزة متأرجحة بين صيغة الحفاظ على سلفية ما قبـل التجديد وخلفية ما بعد التجديد. اما بعد حصول التـراكم المحـدث بـالزمن واستتباب الحالة العقلية للمعطى الجديد - كدين في مثالنا هـذا - فـان حالـة الوجدان المصاحبة للقبول العقلي تجاه الحدث تختلف كما وكيفا ايضا عن وجدان الجمهور الذي شيء ان يكون زمنه ضرفا لظهور تلك الحركه . وهنا نعـود في المثال نفسه الى مناقشة فائدة التفريق بين تناغم وتعـاطف الجمهـور في قـراءة التاريخ. اننا اذا تعاطفنا مع صيغة الرفض التي ظهرت او التي كان عليها ان تظهر كحاصل اختلاف عقلي، فاننا بذلك سننتقل الى اصدار صيغة عفو وتسامح مع عناصر الردة على حركة التجديد بالشكل الذي سيحتوينا نحن ويسحق فينا روح المقاضي تضامنا مع المقاضى في رفضه وردته. وصيغة العفـو عـن الانهزاميـة الاجتماعية في زمن ظهور الحدث هي في حقيقتها صيغة تضامن مع تخلف وهذا ما يرفضه المنحى الابداعي الذي يقرره علم النفس كواحد من مؤشرات السلوك الارتقائي. اذن لهي صيغة مرفوضة بدءاً من قبل كل التـنظيرات الـتي تنـادي بضرورة التلاحم الوجداني بين الخلف والسلف. اما اننا نتناغم مع صيغة الرفض دون الدخول في تشنج منكفيء، محاولين ان نعرف حيثيات الارتداد عن الجديد في زمن ظهوره، دون التضامن معه (الارتداد) فاننا نكون قادرين ان نصير خارج

دائرة الوعي الضيق التي احاطت بالمرتدين على التجديد وأوقعتهم فيها وقــادرين في الوقت نفسه على استكناههم دون انسحاب قصورية وعيهم علينا. ان إصدار مذكرة العفو عن أبي جهل – وارجو ان نبقى في المثال نفسه حفاظاً على وحدة النقاش – بصيغة التناغم يحملنا على تفهم قصورية ومحدودية وعيه وإخفاقــه في الارتفاع بوجدانه السلفي الجاهلي إلى مصاف قبول الجديد الثائر على التمــزق القومي والبدائية المعتمة ولكنها – أي صيغة التناغم – تظل قاصرة عن حشرنا في تبني أحقية موقفه في مناهضته لحركة الدين بدءاً برائدها محمد الرسول (ص). التي تقرأ في أبي جهل إخفاقه في القدرة على القبول والتي تحضنا على سير محدوديــة وجدانه المصاحب لمداركه العقلية نحقق نفسيا في عــصرنا الحاضــر مــدلولين مهيمن(١)–نحقق عملية كف وحماية للجيل المعاصر من التلوث الفج بكل محاولة ارتداد عن حركات التنوير والانتماء الموجب – والاديان منها –. (٢) نحقــق محاصرة لعوامل ظهور او امكانية ظهور اية ردة فكرية يمليها وجدان مــنخفض لكل حركة رائدة تظهر في سلوك المجتمع المستفيد من التاريخ. وفي حالة قيامنــا بجوار ابي جهل نفسه بصيغة التعاطف فأننا سرعان ما نقــع في دائرتــه لاننــا سنتقمص موقفه الرافض في ردة جديدة وهذا المسار المخطئ الذي يخشاه علــم النفس في ابناء المجتمع ويخشى وقوعهم فيه(٣).

ان التقمص علة اخرى من علل الوجدان في قراءة التاريخ. وبقدر ما يكون التقمص كآلية مطلوبا فانه كان مطلوب بشيء من الحذر. وصيغة الحذر تمليهــا المفارقة في حيثيات التاريخ نفسه. ان اية حالة نقل ميكانيكي مفتقرة الى عنــصر المغايرة والرفض للجاهزية في التقمص عملية خطرة على وجدان الفرد والمجتمــع المستلهم لاحداث تاريخه. ولكي لا يكون التقمص ذوبانا فجــا للمــتقمص في شخصية المتقمص، ينبغي ان يتداخل التقمص وكآلية ايضا مع آلية نفسية اخرى،

تلك هي ((الاستبطان)). ان النصوصية في القراءة ثم النصوصية في الاستلهام تحمل مقتلا داميا في شخصية من يمارسها، وهنا يتوجب علينا التفريق بين نـــصوصية الفكر ونصوصية التطبيق. فالاتقاء السلوكي على الحدث التاريخي من قبل دراسيه افراد ومجتمعات، بايولوجيا ونظريا، عنصر من عناصر رفض نصوصية التطبيـــق. فالجغرافية فاعلة والاقتصاد ومتطلباته فاعل والسياسة فاعلة. ومجمل هذا الفعل هو المتغير النوعي في الكم، المستفيد من النص التاريخي الفكري للحدث، الـــرافض لضرورة الاخذ بالحذافير في التطبيق. اذن هل تستطيع إلية الاســـتبطان انتـــشال الوجدان من هوة ومأزق التقمص بتفريق نصوصية الفكر عن نصوصية التطبيق؟ ان الاستبطان قمين بذلك. فالمستبطن الوجداني مرآة ذات وجهين، وجه خارجي يرى الحدث ووجه داخلي يرى الذات وفي آن واحد ولكن بكيفية مختلفة اختلافا موجبا مضيئا بحساب المناظرة المفيدة بين الحدث وامكانيات الاستفاده منـــه . ان الاستنطان في وجهه الذاتي الداخلي يعزز القدرة الخاصة في الجسد الاجتمـــاعي على الكينونة والوقوف بأقدام صلبة دون العيش على المرأي الخارجي للحـــدث. ومن هنا تظهر روح النص الفكري للحدث عنصراً فاعلاً في اللاحق من المـــسار دون اللجوء أو ضرورة اللجوء إلى تقمصه بالتطبيق الناقل لكل الممارسات الـــتي كانت لها ظروفها المادية وصيرورتها الموضـــوعية. ان تقمـــص فكـــر العظمـــاء والخالدين آلية صحية معافاة من آليات النفس ولكن تقمص العظماء والخالـــدين كشخوص بأبعاد وسمات ونزوع وميول ومداخلات خاصة إفراغ لاســـتقلالية الوجدان الذي يميز المجتمع ليمتاز به كهوية جديدة له. واستبطان رؤيـــة ثنائيـــة الجانب، تمتد من الخارج (من الحدث) إلى الداخل (الذات) وتمتد مـــن الـــداخل (الذات) إلى الخارج (الحدث) (ـــ).

ولكي تظل الثنائية قائمة فان نصوصية الفكر هي الوشيج الرابط بين طرفي هذه الثنائية في حين يكون النص التطبيقي أو التطبيق النصوصي واهنا في القيام ومفشلا لالية الاستبطان تلك. إذا كان هذا هو الحاصل للوجدان الاجتماعي بصيغ التقمص والاستبطان في قراءة التاريخ فما هو فعل الإسقاط في تلك القراءة؟.

ان الفواجع الحضارية والانتكاسات الثقافية في كل هيكل اجتماعي مدعاة لبروز ظاهرة الإسقاط ممثلا بإظهار الشعور بالذنب مسقطا فرديا أو جمعيا ليس على الذات بل على الناتج التاريخي السلف الاجتماعي. ولئن كان في أرجاء الشعور بالذنب في موقف محبط حضارياً إلى سابق تاريخ أمة من الأمم عزاء للذات المعاصرة بغية الخلاص من محنة عدم تحقيق النصر ومواكبة روح العصر في هذا العزاء وقفة تأمل جديدة يناقشها علم النفس في آلية إسقاط الشعور هذا، ليس دفاعاً عن سلامة حدث حاصل حسب، بل كإعادة أفاقة لخطأ ممارسة الإسقاط نفسه ومطالبة المجتمع وأفراده في إعادة النظر في اتخاذ مثل هذا القرار الخطير أيضاً. فصيرورة الحال المعاصرة ومآلها إلى الإخفاق في موقف اقتصادي أو سياسي لا يبررها فشل أو إخفاق تراث في محاولة لتسقط الهنات في المسار.

ان حصر الشعور بالذنب بمعاقبة الذات المعاصرة نفسها أمر يحدد مسألة الإخفاق ويزيح عن الكم التاريخي غبار اللوم والتثريب. قد يفيد استجلاء مواطن الخطأ في مواقف التاريخ كأحداث أو مواضيع أحداث في عدم تكرارها أو الوقوع فيها من جديد كعنصر من عناصر التسامي على الخطأ بروح فقهية جديدة. هذا صحيح ولكن إقالة العثرات المتكررة بان لها جذوراً في التراكم التاريخي وانكفاءات الذات الاجتماعية المعاصرة في اعتبار تلك الجذور مورثا

بايولوجيا عرقياً حاثاً على تكرار نفسه في لاحق المسار مطب خطير يحذر فيه علم النفس الفرد والمجتمع من مغبة الوقوع فيه. ان استقراء إشراق الأحداث التاريخية هو الأساس في نشوء الشعور بالذنب أمام وهن معاصر لم يستطع مواكبة هـذا الإشراق. وعندما يتلكأ المجتمع المعاصر أو يتعثر في مواقف حضارية فإن شـعوره يجب ان يكون موجهاً إلى ذاته لا إلى ماضيه. فاذا كان عزاء المعاصرة في اخفاقها وجود اخفاق في تراث ما فأين سيكون عزاؤها اذا برز امامها اشراق ذات التراث لا اخفاقه؟ عندئذ سيندى جبين الشعور بالذنب الملقى على ماض اخفق الحاضر في مواكبته في الاقل ولا نقول في السمو عليه كحدود عليا مطلوبة. اننا لا نملك موروثاً للخطايا في الهيكل الاجتماعي يحقق في سلالاته نقلا ميكانيكيـاً صـرفا لروح الخطيئة. لاننا اذا كان هذا حالنا نكون قد وقعنا في محنة توقف الديناميـة وتعثر سلم الارتقاء المستندالى فضائل الماضي. اما ان يشخص المجتمـع خطيئـة حدث في شخوص او مواضيع فهذا عزاء ايضا ولكنه ليس عزاء مغضباً للـشعور بذنب مستلم عبر اجيال صنعته والغت في اللاحقين قدرة تجاوزه والانتصار عليه بالجديد من العطاء. ان انحسار التقنية في مجتمع ما بارجاء الذنب الى سلف زراعي سابق عليه عزاء فج لان غياب التقنية في ماضي ذلك المجتمع حكمتـه ظـروف كينونته زراعياً، او ضرورة كينونته زراعيا ولكنه لا يكون عزاء مقبـولاً عـاذراً لغياب التحول من ظرف خاص محكوم بحاجة مقننة ولا يصلح ان يكون ذلـك لوحة لاسقاط ذنب التخلف التقني لا لشيء الا لان ضرورة ما اوجدت صيرورة ما في زمن ما. ان الحركات المضادة لمعطائية الانسانية هي التي حاولت تقـسيم الاختصاص على المجتمعات. ويجب على علم النفس في المعاصرة ان يحارب مثـل هذه الحركات. فالدماغ البشري ككم اختزاني للقدرة واحـد لكـل البـشر ومسارب استخدام تلك القدرة مفتوحة ومعدومة الـضرورة الى الاختـصاص.

فالشرق ليس شرقاً زراعياً والغرب ليس غرباً صناعياً. والشرق ليس شرقاً غيبياً والغرب ليس غرباً مادياً. والعرب ليسوا مجتمعاً شعرياً اختصاصياً – وان كانوه – ان في الشرق مثل ما في الغرب من امتلاكات القدرة. فلا يعرف علم النفس ولا يقرر معرفياً اختصاص عقل ما بمجال ما. وهنا لا تتكلم عن الهوايـــة او الـــترغ الوجداني المفصول عن العقل بل تتكلم عن شمولية الوظيفة الوجدانية بـــشمولية الاختصاص لا خصوصيته. واخفاق مجتمع في مجال لا يترحم عليه ماضيه معزياً بما كان عليه من اختلاف. فالوجدان وان كان متأثراً بنوع الثقافة الا انه صـــائر الى التغير بيد من يغيره لا بيد من يهيمن على صاحبه كضغط مملى عليه. وهنا ننبري مجدداً الى القول ان الشعور بالذنب في موقف احباط يجب ان يتوجه الى الـــذات المعاصرة وان لا يرجم الماضي بكونه مسؤولاً عن خراب اوجده حاضر التـــبني الاجتماعي لمعتقد افقده قدرة الانتصار. ومثلما برز أمامنا خطر ارجاء الـــشعور بالذنب في خسارة موقف معاصر الىة حالة تسقط اخطاء مواقف السلف، تبرز كذلك ضرورة الشعور بالذنب عند استنكاه ظواهر الاشراق في مواقف السلف بصيغة المقارنة مع الاخفاق المعاصر. هنا يقدم الماضي المشرق لحدث تاريخي دمغاً لكل اختلال اجتماعي قصر عن المواكبة والارتقاء والسمو بالجديد لكي يكـــون مضافاً مشرقاً في مسلسل تاريخي يوظف لاحقه قدرة الالتزام بـــشرف الـــسابق وحضارة السلف. فيخسر الشعور بالذنب الى الذات التي ستخضع للمحاكمـــة الوجدانية محاكمة ناجحة تؤثر عوامل الاخفاق وسبل الخلاص منها او الخروج بها الى عوالم النور. ان اخطر مرض يكمن وراء الشعور بالذنب هـــو الاكتئـــاب، واخطر صور الاكتئاب هو شموليته واعني صيرورته؟ ((اكتئاباً اجتماعياً))[٤]. ان المجتمع الذي تؤدي به هذه الالية الدفاعية الى الكآابة سيضع عليه عامـــل اتخـــاذ القرار. فالمريض يعجز عن اتخاذ القرار فلكي يقرر يجب ان يكون صحيحاً فهـــل

نستطيع ان نحاصر ظاهرة الشعور بالذنب باحاطة موفقة تسقط فاعلية الظاهرة في تحويل المجتمع الشاعر بالذنب الى مجتمع اكتئابي؟ نعم نستطيع اذا جعلنا المسؤولية الاجتماعية عن الخطأ الحضاري مسؤوليته هو وبصرنا هو وليس غيره بأنه سليم او يمكن ان يكون اذا ما تصرف بلباقة في كيفية التعامل مع الذنب تحديداً للكم وتصريفاً للكيف وحسراً للاتجاه. ان الخوف الذي يساور علم النفس هو الخوف من ظهور آلية لاحقة لآلية الشعور بالذنب ونعني بها آليـة الإنكـار (Denial defence). وعلى الرغم من ان كثيراً من الدراسات تميل الى عد الية الانكـار عملا عقليا لا وجدانيا الا اننا اميل الى اخـضاعها كواحـدة مـن الوظـائف الوجدانية، في الاقل لانها ناتجة من الية وجدانية سابقة عليها (علـى فـرض ان العصاب لا يمكن ان يولد ذهانا انما يمكن ان يصور بعضاً من جوانبه). ان الانكار امر خطير في المؤسسة الاجتماعية. ان الانكار لخطيئه عدم تحقيـق النجـاح في المواقف الية مرضية يجب ان يتنبه لها بناة المجتمع الجديد بأسس نفسية سليمة. ان الانكار يحمل في خفاياه عنصر اتهام الغير والماضي بالضمن منه بمسؤولية الخطيئة تلك.

وعندما تبرز الية الانكار تعتري المجتمع عقـدة الاضـطهاد.. ولم تجـد الدراسات النفسية امراً اشد عسرا في الهـضم مـن شـعور المجتمـع بـشعور الاضطهاد(٥). فالمؤسسة الاجتماعية التي يشعر افرادها انهم مضطهدون بأفكـار سالفة لعبت جاهزية القوالب وصيغ السلف دوراً في ابرازها، مؤسـسة واهنـة سرعان ما تسحقها عجلة الزمن وتجعل الاستفادة من عنصر التاريخ امرا ملغيـا باطل القيمة. واذا ما انقاد المجتمع بدءا بالفرد فيه الى الية الاضطهاد فان ظواهر ستى ستبرز فيه تتمثل بالعزلة عن المجتمع المكبر للانسانية والاقليميـة الجغرافيـة وتصير مسألة الرجم المؤلم لاطراف اخرى شغل المجتمع الشاغل والمعيـق الاول

المتواصل مع البشر في الاسهام بحضارة تعم سكان الكرة الارضية. فلكي لا ينفصل الفرد عن ماضيه يخاف عليه باديء ذي بدء من فصامه. ان الانفصال وليد الاضطهاد والفصام وليد الاضطهاد الانحسار في قالب خاص منحسر عن مواضي الاخرين وماضيه هو وليد الشعور بالاضطهاد. فلكي لا يتولد الاضطهاد كوجدان يجب ان نحارب الية الانكار ولكي لايتولد الانكار يجب ان نحارب الشعور بالذنب ولكي لا يتولد الشعور بالذنب يجب ان نحسره في عقاب الذات المعاصرة بتقصيرها هي لا بتقصير التاريخ. ان احداث التاريخ في اية امة تحمل شروقاً وتحمل اخطاء. وكل هذا الشروق وكل هذه الاخطاء محسوب لها وعليها، ليس بلغة القطع التاريخي عن السلف لان زمن التاريخ المتواصل ضرورة، انما بلغة المحاكمة التي تنتقل اليها ديناميا بالوجدان دون الاجساد.

ومثلما طلبنا من الشعور بالذنب في خطأ لاحق ان لا يكون مبرراً بخطأ سابق، كذلك نطلب منه في حالة استجلاء مكامن الشروق في الحدث ان لا يكون مدعاة لبروز الية مرضية اخرى خطيرة ونعني بها الية العظمة. ان التعاظم بان ماضيا فخما هائلا بمعطياته كان لشعب من الشعوب مقتل خطأ اذا توقف عند حدوده كتعاظم. فالعيش على مجد غابر دون الإلحاح المعاصر على ضرورة الاستمرار في رفد هذا التعاظم بالجديد من الحضارة والمدنية بما يضيف للعظيم ما هو اعظم، مقتل يجر المجتمع اليه ليعلق فيه جراحه ويشرب دماءه المرة مجة المذاق. ان الزهو والخيلاء Exaltation لان ماضياً تاريخيا كان مشرقاً ذات يوم هما حالة من حالات رد الفعل المتجهة الى الخلف وليس الى الامام Reaction Formation" وارجو ان نفرق بين الاستفادة من الاشراقة في الحدث التاريخي وبين التعاظم على حسابها والاكتفاء بها لان الزمن يريد ان نقدم له الكبرياء الحضاري لا الكبرياء المرضي السقيم. ان الية العظمة وظيفة وجدانية مخله بشرف

الانتماء الى من ارس دواعي لا العظمة ذاتها. ان انتصار المسلمين في ((بدر)) توج حدثاً وخلق آلية عظمة اسقطها فقدان التحسب للحفاظ عليها في ((آحد)) بالشكل الذي لم يشفع فيه تعاظم بدر كحدث ((انحدار آحد)) كقيمة لهذه العظمة. ان آلية العظمة آلية وجدانية في ((الهوس الاجتماعي)) يصلحها ((الصمت المثمر)). و ((الصمت المثمر)) وان كان يتطلب عملاً عقلياً فإنه يتطلب وجدانا اجتماعيا مسوغا لاستمراء روح العمل العقلي او ما هيته بكف الية العظمة. ان الطموح هو قاتل الرضا بالميسور ولكي يكون كذلك فان الميسور يصير محطة استراحة لا مالا نهائيا يقف عنده المجتمع ويتوقف به. ولكي نقتل ((الهوس الاجتماعي)) يجب ان تقتل شعور العظمة الا جوانب التفاؤل فيها. ان فواصل التفريق بين العظمة كشعور كاذب والعظمة بالفأل والظفر فواصل دقيقة. لا ينوف مجتمع على مجتمع الا باحترام قدره ولكن بحدود. فالقدر غير القدرية. القدر هو المتاح الصائر الى التغير. والقدرية هي الإقرار بحالة فقدان الديناميه والركون الى سبات مميت. ولكي لا نجهز بالكل على ألية العظمة، لان فيها ملامح شروق، يجب ان نلتفت الى توظيف التعاظم بإيجابية وتحطيم حدود الغطرسة المهروسة التي تقف بالمجتمع عند مشارف المناداة بتاريخ مجيد يقابله حاضر ساذج.

هوامش الفصل الثالث:

١- يرجع الفضل في كشف الكثير عن مقومات السلوك البشري في قديمه وحديثه الى علم النفس الاجتماعي، كتكوين الآراء والرأي العام والإتجاهات والعقائد ومفعول الجماعة والنظرة الى الجنس، وبالتالي الى استيعاب الوجدان الاجتماعي بما يجعل هذا الوجدان خاضعاً للمؤثر التاريخي وبما يجعل الحدث التاريخي خاضعاً في قراءته لوجدان هذا المجتمع ويقودنا لحديث عن وجود التاريخ الوجداني في الفرد والمجتمع الى ذكر تاثير الايحاء في التجربة التي قام بها كل من سوروكين وبولديريف Sorokin & Boiydreff حين قاما بعزف اسطوانة لقطعة موسيقية من السمفونية الاولى لبرانر على ١٤٨٤ طالبا ثانويا في الاجتماع الاول ثم في الاجتماع الثاني الذي تلاه. لكن العالمين سوروكين وبوليدريف قدما القطعة في الاجتماع الاول على الها وصلة موسيقية لمعزوفات من القرون الوسطى. وفي الاجتماع الثاني قدما نفس القطعة على الها تقليد مبالغ فيه للقطعة الاولى. وقد اعتبر ٩٦% من الطلبة ان القطعتين مختلفتان فعلاً واعتبر ٥٩% ان القطعة الاولى اجمل واحجم ٤% عن الراي. ودلل هذان العالمان على ان تقمص الوجدان او خلق وجدان اجتماعي لتقمص حدث معين واستكناه اجزائه ممثلة بالموسيقى، دليل على امكانية خلق تاريخ وجداني كذلك يؤثر المجتمع على الفرد في احتوائه ضمن وجدان عام ثم في احتوائه في تاريخ وجداني عام، وقد اكد ذلك كيرت ليفن Kurt Lewin وهو عالم نفساني أمريكي. ولا ننسى دور ابن خلدون حين لاكتشف آليات نفسية متعددة تدخل في حركة التاريخ الوجداني ومن جملتها آلية ((التوافق والمحاكاة)) التي يدلل بها على مقدار الربط في الضمير الاجتماعي على مسار الزمن بما يدعم مسألة ظهور التاريخ الوجداني، ارجو مراجعة: مقدمة ابن خلدون – مطبعة مكتبة المثنى – بغداد.

٢- للمزيد من الاطلاع على عمل الجهاز السمبثاوي ووظائف التناغم والتعاطف أرجو مراجعة:

(1) Lazarus R.S. : Psychological stress & the coping process : Newyork, Magraw – Hill 1966.

(2) Lazarus, R.S: The Laboratory approach to the dynamics of psychoiogical stress.
M. l. T. press. 1964.

٣- ان دراسة هذا الموضع (القدرة على التعاطف والوقوف عند حدود التناغم) تتوظف فيه اليات عديدة مثل التي ذكرت كالتقمص والاستبطان والاسقاط. وقد جرت محاولات عديدة في علم النفس المعاصر بغية الاستفادة من هذه الظاهرة في عمليات غسل الدماغ لمواطنين من بلد معين او

لافراد يعتنقون مذاهب واتجاهات اخرى. فعمليات غسل الدماغ تشمل ضمن ما تشمله مسح الذاكرة او اجراء التحويرات فيها في محاولات تجريبية عديدة بغية احداث حالة انفصال بين خزين الفرد المستلم من معطيات الاحداث التاريخية وبين حاضره. وقد استهدفت تلك الدراسات التأثير المباشر على حالة التعاطف - sympathetic التي يمكن ان ينتقل اليها الفرد بتأثير مباشر او غير مباشر لاحداث ماضيه وتراثه والابقاء على حالة التناغم الواهنة او ربما حتى ازالة هذه الحالة الاخيرة (بمعنى اخر تهدف عمليات غسل الدماغ الى احداث ردة وجدانية تعتمد القطيعة التاريخية بين الفرد وماضية اساسا لغسل الدماغ وتفريغة من محتواه الوجداني). ارجو مراجعة:

(1) Hunter, M.L : Memory :pelican 1961.

(2) Fiugel, J.C. (1959): A Hundred years of Psychology Duckworth, London.

(3) P. VAN Sommrs : The bioiogy of Bchavior.
John wiley & sons : Grffin press.
South Australia 1972.

٤- يقودنا الحديث عن اثر الاكتئاب الاجتماعي في صناعة التاريخ الى خطورة دراسة دور الفرد المسؤول او الافراد المسؤولين عن صناعة حدث تاريخي ثم اثر هذا الحدث في احداث الاكتئاب العام لدى الاجيال اللاحقة. ان الاكتئاب الاجتماعي الذي يسود الشعب الالماني الان هو اكتئاب انفعالي معاصر اورثه عاملان:-

العامل الاول:- غلواء النازي ومسؤولية هتلر المريض في صناعة حدث جر مجتمعا كاملا الى النهاية المفجعة. والعامل الثاني: تفكك المجتمع الالماني بعد خسارته الحرب ولعقة جراحه الدامية وسقوطه في مخالب السيادة الغربية والامريكية عليه. وهذا الانفعال هو اللون شاحب الصورة على وجوه الالمان الذين يقرأون التاريخ وفيه الية ذنب معاصر في اخفاقه عن اصلاح جراح الماضي. والاكتئاب الاجتماعي الذي يسود الجيل اليهودي المعاصر هو وريث الفكر اليهودي المزدوج الذي خلق من شخصيات بني إسرائيل وجوها عديدة تتقمص السياسة والدين والتجارة والملوكية والنبوة والحرب حسب ما تمليه ردة الاكتئاب المعاصرة ومحاولات الخروج بالجيل الإسرائيلي من دائرة الإحباط. حول هذا الموضوع أرجو مراجعة:-

"The Six day's war" "Heinman book London

(1) Churchil, S. R. & Winston Schurchil: 1967.

(٢) محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٦١.

(٣) الصهيونية والنازية (معين سالم. بيروت).

٥- ان الشعور بالذنب يربك العقل ويعتمه بحيث يصل الى حد التشوش والانهيار ثم الانقياد. يقول القس (فينلي): ((لا يمكن لاي آثم ان يعرف جسامة خطئه ولا يمكن لاي مخلوق ان يعرف كل ذنوبه لانها اثار عميقة وعديدة. وكثيرا ما يصاحب الية الاضطهاد او الافكار المتسلطة على الفرد المعاصر او المجتمع المعاصر من تاريخ لا يتواكب مع المعاصرة بشيء من التناظر، يصاحب ذلك القلق الذي يشل قابلية الانسان على التمحيص والتحليل المنطقي. وكثيراً ما ادى الشعور بالاضطهاد الى حدوث الردة في المعاصرين على السلفية التي تملي عليهم جاهزية القولية من التعليم والاحداث. فقد اصطدم القديس جيور دانو زيرونو (١٥٤٨ – ١٦٠٠م) بالكنيسة الكاثوليكية وانتقد اللوثرية و لم يحبذ الكالفينية لكنه ظل حر الرأي يؤمن بوحدة الوجود ويكره التعصب على الرغم من وقوعه في يد محاكم التفتيش الايطالية. ومثل ذلك حدث لجوزيف سميث في منطقة اوهايو عام ١٨٣٠م حين ثار على تاريخه الاجتماعي وادعى النبوة وما كان ذلك الا نتيجة لشعوره بالاضطهاد الذي قاد الى اليه الانكار وخلق لديه فاعلية التعاظم على تاريخ كامل فرضه جملة وتفصيلاً. ويفسر بعض الدارسين ان ظهور الردة على الاسلام لدى بعض الاعراب بعد وفاة الرسول (ص)، كان تعبيراً مرضياً عن الية الشعور بتغاير التاريخ الجديد الذي لم يعد ممثلاً لخصوصية العشيرة او الطائفة لدى الفرد، فشعر بعض الاعراب ممن هم دون مستوى الاسلام في عالميته وسعة افقه بالاضطهاد الذي اخرجهم – حسب اعتقادهم – من حيز فئة صغيرة كانت تمثلهم في الاماني الصغيرة والانتماء المباشر. وهكذا نجد ان المغايرة او عدم القدرة على فهمها بين تاريخين يتفوق احدهما على الاخر، يمكن ان يخلق مشاعر الاضطهاد او مشاعر الذنب او مشاعر العظمة طبقاً لنوع الفارق بينهما وطبقاً لما يمكن ان يؤول اليه الفرد في فهم هذا الفارق. ارجو مراجعة:-

(١) على ادهم: (برونو..) – مجلة العربي الكويتية. العدد ١١٠ عام ١٩٦٨.

(2) Fawn, M. Brodie. (1960) : the life of Joseph Smith N.Y.

(٣) احمد امين: فجر الإسلام ص ٣٠٠ – ٣٢٥.

الفصل الرابع

العمل العقلي وصناعة التاريخ

- تاريخ العقل
- التفسير المادي للتاريخ
- العوامل الفاعلة في الذاكرة التاريخية
- العوامل المعيقة للوعي الفردي والجمعي
- الفلسفة والعقل
- ملامح التاريخ المحققة للإدراك
- الذكاء والتاريخ

ربما تصلح لغة الحديث عن التاريخ كحدث لاستعمالها في الحديث عن المتحدث. وإذا كانت اية محاولة سبر للعقل معقدة في وضعه المعاصر فالأكثر تعقيداً منها محاولة وضع تاريخ للعقل. فهل ولد العقل من رحم التاريخ أم العقل هو الذي ولد التاريخ؟ تلك هي الصعوبة. أن افتراضنا إن التاريخ هو مولد العقل وهو المتدرج به إلى المستويات المتعالية من الوظائف بسلم يبتغي قمة الهرم الفكري، هذا الافتراض يحملنا مسؤولية الإقرار بكينونة تاريخ جاهز للإنسان قبل الإنسان. وكينونة التاريخ قبل ظهور العقل تجعله جسداً مادياً صانعاً اما إذا اعتبرنا التاريخ وليد مرحلة العقل فإن ذلك تدليل محض على ان التاريخ صنعة من صنعات العقل البشري وانه انفراز حادث له تاريخ ظهور. يعني هذا محاولة جديدة لوضع تاريخ للتاريخ نفسه وهذا ما يتعذر على صعيد تحديد نقطة البداية. ولكننا اذا اسلمنا بأن للانسانية بداية تمثلت بظهور الانسان على الارض، نكون قد اسلمنا بان التاريخ العقلي تابع بالكينونة، صائر بالارادة الحرة او الموحاة للصائر قبله: العقل[1]. وما دام لكل شيء تاريخ لا يتأثر بهيولة ذلك الشيء، بقدسيته او سذاجته الا بما يكفيه ان يسمى تاريخاً، فانه الاقرار بان العقل متدرج في التعقيد الوظيفي والارتقائية. يبدأ التاريخ بتسجيل احداث العمل العقلي درجات تصوره التفكير الساذج الفطري مروا بكل عمليات الانتصار على ظرفيته من الخرافة ووهميته وضلالاته وانتهاء بأدق مراحل تساميه وتجليه الحضاري. ولكن العقبة الكأداء التي تقف امامنا في قراءة تاريخ العقل هي مسألة التسليم

بالتفسير المادي له او النفور منها. فاذا اسلمنا بأن التراكم الزمني هو المسؤول عن تطوير العقل الى مراحل سامية لاحقة على سابق اولي له كما تقول النصوصية المادية، فإننا نعود بذلك غير قادرين او غير محتاجين لمخاطبة الخبرات الحادثة في التاريخ لاننا نمتلك افتراضا قدرات اسمى منها صار الزمن كفيلاً بإحداثها. والذي يبدو جليا من قراءتنا للتاريخ نفسه ان هذه المسلمة محمولة محمل الرفض لان افرازات العقل لا تتماشى بالضرورة مع الزمن فمراحل النضج في زمن ما معقوبة إحصائياً بمراحل تهافت عقلي ينحدر فيه إلى مسار مترهل متبلد. وإذا أخذنا نواحي الاقتصاد والاداب والسياسة والفنون كمفرزات عقلية، نجد إشراقاً عقليا فيها في أحداث سابقة اتبعت بمراحل خمول وانحسار لهذا الإشراق. لهذا فإن لغة الرفض للتفسير المادي للتاريخ يجب أن تكون عالية النبرة بوجه دعاة هذا التفسير.

ان العمليات العقلية التي تفرزها المؤسسات الاجتماعية تشكل تراكماً خبرياً يضاف بالكم الى جسد التاريخ لسلالة تلك المؤسسات الوراثة لهذا التراكم بصيغة ما نسميه ((التراث)). يدلل علم النفس على ان التراث هو ذاكرة خازنة مخزونة في دماغ البنية الاجتماعية. وعندما يقرر علم النفس ان التراث ذاكرة فإنه يمنحه سمة او صفة العمل العقلي. وهنا تبرز اهمية دراسة العوامل المؤثرة في هذه ((الذاكرة التراثية))[٢] والتي تترك من الاثر السلب او الايجاب ومن الشكل القبول او الرفض لها ومن النتيجة الاستفادة او الضرر. ان اهم العوامل الفاعلة في الذاكرة التراثية هي:

(١) **دينامية التراث العقلي**: ان الاحداث التاريخية التي هيأتها للنشوء مواضيع مرحلية وشخوص مجتزأة، غير قادرة على التواصل تبقى احداثا مقطوعة الزمن، منكفئة، تندفن لوهن في المضمون ولفقر في التجربة في ظلمة النسيان وتفقد

القدرة على الانبعاث من جديد. باختصار تفقد دينامية التواصل مع المسار الاجتماعي اللاحق بما يقدم حضارة او استنباطاً لجديد. فمعركة من المعارك او حركة من حركات الفكر او ثورة من ثورات الاقتصاد او محاولة من محاولات التعديل السياسي تكتسب قوتها من مرحلتها وضرورتها من ضرورة زمنها تموت بموت المرحلة وتزول بزوال زمن الضرورة، وهي بذلك لا تقف في المصاف الذي يجعلها تراثا تذكريا تختزنه العقلية اللاحقة ولا تتبناها فكرا او تصورا او اقتداء. وعلى عكس ذلك تماما فان ثورات التاريخ الفكرية والاقتصادية التي لا تخطط لمرحلة وانما لمراحل ولا تقوم لجيل بل لاجيال، سرعان ما يمنحها الزمن ديمومة التواصل وتكتسب هي كتحصيل حاصل دينامية البقاء.

(٢) تزامن العواطف والعمل العقلي:- ان علم النفس يقرر ان كل ما سلف يعتبر تراثاً قابلاً للخزن. هذا مهم بلغة الاحصاء الدماغي الفسلجي. ولكن معضلة الذاكرة في التراث تكمن في القدرة على انبعاث المخزون. ان أي حدث لا يشحن الجسد الاجتماعي بشحنة الاثر ولا يدغدغ الوجدان العام يفقد قدرته على الانبعاث بابسط درجات التذكر له. فالسلم الزمني للتاريخ يسجل كل الاحداث التي ار تقت درجاته ولكن ليس كل احداثه جديرة بالاسترجاع من قبل الوعي الفردي او الجمعي في الهيئة الاجتماعية. الجماهير لا تستذكر ((لا تسترجع)) الا ما يشحن مشاعرها وهواجسها بشحنة الانفعال للحدث نفسه. فالمخزون شيء والمسترجع شيء آخر. ويكاد هذا العامل ان يتشابك من جديد مع العامل الاول ((الدينامية)). فالدينامية في الحدث ترتبط بقدرته على محاكاة الحد الاكبر من مشاعر قارئي التاريخ. ولا تلتقي مشاعر الناس الا مع ما يخدم مصالحها من احداث التاريخ. وعلى الرغم من ان المشاعر حالة وجدانية صرفة الا انها لا تفترق عن العمل العقلي القارئ او المتتبع لعمل عقلي سابق عليه.

(٣) **الشعور بالانتماء للعمل العقلي في الحدث التاريخي**:– ان آصرة مجتمع بماضيه هي آصرة انتمائه اليه. والانتماء نزعة من نزعات الشعور بالامن النفسي وتلبية الحاجات البايولوجية الاولية. وبدون تحقيق الحد الادنى من معطيات الانتماء الفردي او الجمعي لحدث تاريخي، تسقط العملية العقلية اللاحقة عن القدرة على ملاحقة احداث التاريخ السلفية. والجمهور يسأل ليس عن الحدث نفسه، انما عن محتواه العقلي في شخوص محدثيه ومواضيع احداثه. فاذا ما وفرت قراءة الحدث التاريخي ارضاء فكريا مواكباً لعقليه المجتمع اللاحق واجابة لتساؤلات وفهم العقل المعاصر، فان ذلك الحدث يوفر عليه وعلى متتبعيه جهد التساؤل عن فكر ومجاهدة ذلك العمل. فثورات التاريخ التي تحدث لاغراض فردية مفتقرة الى فكر خلاق وعمل عقلي مبدع بالشكل الذي يؤطر عنصر انتماء الخلف له، سرعان ما ينساها الناس معتبرين اياها مراحل واهنة في المسار الفكري خلقتها حاجات منقطعة عاجزة عن تقمص حاجات اللاحقين في مسار الانتماء ذاته.

(٤) **الوعي**:– ان العقل وظيفة الانسان الكبرى وعلة سيادته وارتقائه. والوعي ركيزة من ركائز العمل العقلي الفاعل. ويعرف علم النفس الوعي بأنه قدرة الفرد على احتواء موقف سلوكي معين ووضعه في دائرة رؤية مبصرة واستكناه جوانبه وتحليل اجزائه بناتج قائد الى فهمه والافادة منه او به في ما يخدم مساره وحياته. واذا كان للوعي حدوده الفسلجية المقنعة بقدرات الفرد نفسه بحيث ترسم تلك الحدود عمقه ونفاذه وشموله، فان له ناتجاً اجتماعيا يسوغ تسميته بـ ((الوعي الاجتماعي)) كمحصلة جبرية في المجتمع لناتج وعي افراده. وتدخل عوامل كثيرة في تحديد درجة الوعي الاجتماعي منها عوامل القهر الفكري والحرمان الثقافي والفقر الاقتصادي وصعوبات الجغرافية وهيمنة الاعراف الخرافية. فمع الحرمان

من الانفتاح على الثقافات وتيسير الحالة الاقتصادية وتسهيل وسائل التواصل مع الشعوب، تبرز المجتمعات بحدود متدنية من الوعي ويهبط العمل العقلي بهبوط الوعي الاجتماعي. هذا هو اثر هبوط الوعي على حاضر مجتمع فهل يؤثر هذا الهبوط على عملية قراءة التاريخ؟ ان من الاكيد القول بالايجاب لمثل هذا التساؤل. فالتاريخ اصطفاف متسلسل لتجارب انسانية افرزها العقل. وهي بذلك عرضة للاهمال والترك اذا لم تستجل بعقل معاصر يملك من معدات الوعي ما يمكنه من قراءة جهد اسلافه وسابقيه. ان العقل المعاصر مطالب بتوفير وعي عقلي لكي يدرك وعيا عقليا سابقا وجهدا فكريا سالفا. والوعي المنخفض بحرمان المجتمع من معطيات الحضارة يخفق في قراءة التاريخ. فالحضارات التي قامت في التاريخ هي احداثه العقلية فهل نستعد او يصح ان نستعد لفهم حضارة بدون معدات حضارة وهل تكون لدينا حضارة بدون وعي؟. ويكاد يتضح من ذلك ان كثيراً من العوامل تدخل في التاثير على الوعي الاجتماعي في مجال قدرته على قراءة الحدث التاريخي. وما لم ينق الوعي من هذه العوامل التي تعمل كشوائب، لا يمكن للوعي ان يتسامى الى مصافه كعمل عقلي[٣]. ان العوامل المعيقة للوعي الفردي او الجمعي تشمل في اغلبها:

(أ) **الافتقار الى العملية**:– تتلازم دقة العلم مع دقة الوعي ملازمة تجعل الاولى من الثانية ضحية لها عند افتقارها ومكسبا مشرقا عند توفرها. وتسري تلك الدقة على كل مناحي الوعي: الوعي العلمي والوعي الادبي والوعي الفني.

(ب) **الخرافية**: لا يمكن للوعي الخرافي أن يكون صادقا في تحقيق قراءة صحيحة لأحداث التاريخ، فالوهم وشيوع الخرافة والأسطورة والطوطمية عوامل قاتلة للعقل بدءاً بوظيفته المشرقة: الوعي.

(ج) **الحرمان**: أن اضطهاد العقل هو اضطهاد للوعي. ونقيض الحرمان هو الأمن الثقافي. فالرقابة على الفكر حبس له عن الانطلاق بالعقل ومدركه الواعي. والإحساس الفردي بالطمأنينة في مزاولة فكره هاجس أولي من هواجس خلق وعي سام مشرق.

(د) **الجوع**: لا يتجه الوعي الى الاشراق والانفتاح والتجلي اذا كانت معضلته التفتيش عن تلبية الحاجات الفردية الاولى للشبع وسد الفسلجة المحتاجة الى الارتواء. وهنا يتداخل اقتصاد المجتمع مع وعيه. فلكي لا يتعرف المجتمع الى همومه الجانبية في محاربة الجوع، يجب ان يتوفر نقيضه: الشبع. ان علم النفس يؤكد مسؤولية السد للحاجة البايولوجية عن تدرج الوعي الى حالاته السامية.

لاحظنا اذن خطورة العوامل المؤثرة في الوعي بمحاولة التاثير في ذاكرته من احداث التاريخ نفسه ولاحظنا كذلك خطورة بعض العوامل الفاعلة في الوعي من داخله، مفقرة له كجانب عقلي في العمل. فهل للادراك كجانب آخر من جوانب العقل علاقة في الموضوع؟

ان الفلسفة التي قررت ان الحدث هو حالة مدركة في العقل بصيغة تبنى فيها العقل معضلة الدماغ واعتبرت العقل كمجمل مدرك للاحداث هو الخالق للدماغ كمادة، رفضها علم النفس التجريبي المعاصر. ان النظر الى الحدث كمدرك عقلي من مدركات الخداع الكوني الذي سرعان ما ينحل بالانحلال الجزئيات في السديم لينحل معه عالم المادة بما فيها الدماغ، نظر فلسفي لا يلتفت اليه المختبر الحديث[٤]. ان اكتشاف مراكز فسلجية مادية في الدماغ تحقق وظيفة يبالادراك ألغى مقولة الفلسفة بان الدماغ المادي هو ناتج العقل المثالي. واذا كان هذا الافتراق بين علم النفس والفلسفة حاصلا فانه ليس دعوة لالتقاء علم النفس

مع الجدل المعاصر القائل بأسبقية الدماغ على العقل بطريقة اسبقية المادة علـى الفكر، لان الدماغ المادي الذي اوجد المحصلة المدركة (العقل) هو حاصل لشيء سابق عليه (على الدماغ نفسه) وهو لا يعدو احتماله على الاقل محمل كينونتـه فكراً سابقاً عليه. فالوعي مرتبط باللاوعي وغير مجتاز له في قدرته بل مستمد منه تلك القدرة. فمن اين يستمد اللاوعي فسلجته المغذية للوعي والادراك. ان هذا المسلسل التراجعي يقودنا الى ان الدماغ ليس الارضية النهائية التي يستند اليهـا العد الصاعد في اعماق الكينونة السحيقة باتجاه محاولة ايجـاد الاصـول الاولى للنشوء بمستوى فكر او بمستوى ماده انما يقودنا الى القبول بأن الدفاع يمكن ان يكون حالة في المسار ليست الاسبق ولكنها من السوابق.

من هذا نصل الى القول ان العقل المدرك هو عمل دماغي لاحـق علـى الدماغ. والادراك الشامل محتو للتاريخ بالضرورة. فما هـي الملامـح الاوليـة للحدث التاريخي التي يجب ان تتوفر فيه لتجعل منه حالة عقلية مدركة؟ اعتقد ان التالي من الملامح يجب أن يكون عليها التاريخ كأحداث ليحقق الإدراك فيه(٥):

(١) **الأبعاد**:– ان اللاوعي هو الحاضن الأكبر للتصور الإنساني لكل معضلاته. ولكن محدودية اللاوعي تقررها محدودية الوعي. والوعي أو العقل الواعي محدود بقدرة وسائله الحسية. والوعي ثم اللاوعي لاحقا يحتاج إلى القياس طالمـا ظـل محكوماً بحدودية الحس ولا يتم القياس هذا الا بوساطة ونفي بها الابعاد فا لحدث خاضع للقياس بأبعاد وإذا افتقر إلى واحد منها او كلها سقط كعمليـة عقليـة خاضعة للإدراك.

ومثلما لكل شيء هندسة قياس بالعمق (البعد الزمني) والطول والعـرض، كذلك فان الحدث يجب ان يكون شيئاً ليخضع للقيـاس. ولا نعـني بهـذا ان

الموضوع لا يمكن ان يكون إلا شخوصاً وأشياء ليكون بعدها حدثاً، لانه من الممكن ان يكون الموضوع ذاته حدثا افتقر الى مكملاته البعديه الاخرى (الشخوص والاشياء والزمن ً(ولكنه يظل حدثا ناقصاً ويظل مؤشراً في الحالة الادراكيه على انه حدث موضوعي لا حدث واقعي. ولكي ينتقل الموضوع إلى الحدثية الكاملة، عليه ان يكتمل أبعاده الأخرى بالشخوص والأشياء والزمن. ان الفكر الذي يحمله العظماء والمفكرون في التاريخ يشكل مواضيع لاحداث ولكن تلك المواضيع احداث قائمة في اذهان مبدعيها. وتظل كذلك الى ان تقترن بالتجسيد الواقعي فتصير حادثاً عندما يخوض لاجلها عشاقها وموجدوها معركة فرضها وطرحها على الجسد التاريخي في مجتمع من المجتمعات. ان الحركة الفلسفية في التاريخ موضوع وهي بذلك حدث فكري ولكنها ظلت حدثاً فكرياً لافتقارها الى الاقتران بالابعاد المجسدة لها (مثل صيرورتها نظاما او قانوناً او مصلحة او وثيقة عمل او اعرافاً اجتماعية وما شابه ذلك). والموضوع بذلك يعدو كونه بعدا من ابعاد التاريخ في انه يمكن ان يكون حدثا قائماً بذاته ولكنه حدث ناقص. وبالمقابل فإن الابعاد الاخرى للحدث كعمل ادراكي في العقل لا تستطيع ان تكون حدثاً عندما يسقط عنها البعد الآخر: الموضوع. فقيام نظام قبلي يعتمد الغزو والاستلاب جسد بعدين من ابعاده: شخوص القبيله القاتلة الغازية المستلبة وزمن الحدث. ولكن غياب الموضوع المقنع لتقبل هذا الحدث كمدرك مقبول مستند الى مادة فكريه حيه فيها اسقاط البعد فظل الشخوص والزمن بعدين هزيلين سقطاً امام المدرك او العمل الادراكي للعقل القاريء للتاريخ واعتبر الحدث، لسقوط الموضوع فيه كبعد، امرا ساذجاً.

(٢) **الغائية**:- يقترن الادراك للحدث بغائيته. فالحدث وان تحققت فيه الابعاد بالموضوع والشخوص والزمن لا يحقق حالة ادراك لاحقة له الا اذا كان غائياً.

والغائية في الحدث بالتفسير العقلي يمكن ان تكون غائية مقطوعة بالزمن كأن تبرز كمدركة غائية محاصرة بظروف ايجادها او ان تكون غائية متواصلة مع العقل اللاحق كمدركة موظفة لغيرها لما فيها من حيوية لاجيال تليها. فوأد البنات حدث تاريخي غائي مقطوع الزمن اوجدته ظروفه بالشخوص والزمن وافتقر الى موضوعه وبذلك حقق غائية سرعان ما انطمرت وانحصرت في الغابر السحيق. وعلى الرغم من انها كانت غائيى خادمة لوجدان اجتماعي مريض ولادراك عقلي هش فإنها اخفقت في ان تكون غائية ممتدة الينا والى ما بعدنا لافتقارها إلى الموضوع الغائي الناجح. وبالمقابل لذلك فإن ثورة الإسلام على الوأد حدث تاريخي غائي استند إلى شخوص (الرسول (ص) وأصحابه) والى زمنه (زمن النضج العربي لقبول تفاهة الوأد) والى موضوع (غاية وجود المرأة على الأرض كعنصر تناسل وديمومة بشرية) فكان بذلك (الثورة على الوأد) حدثاً غائياً طويل الأثر احتوى معاصريه واحتوانا ويحتوي من بعدنا لانه حقق غائية الحدث بما يتقبله العقل كمدركة.

(٣) **طبيعة المدرك**: كل حدث يمكن ان يكون مدركا ولكن المحدد المهم لادراكه هو طبيعته. فالحدث يمكن ان يتناول كل جوانب هموم الانسان وهو بذلك محمل ادراكي مقبول ولكن خصائص طبيعته الكامنة فيه او الداخلة عليه من محاكاته بالحث تؤثر فيه سلباً او ايجابا. وتقرر خصائص كثيرة الحدث كمدركة فتكون بذلك طبيعته:-

(أ) التوافق مع المسار العلمي والاقتران بالروح التجريبية.

(ب) الاقتران بالنقيض وظهور الدينامية.

(ج) القدرة على التدليل على الهواجس الاجتماعية في العقل ومآلاتها.

اذا كان هذا هو ما يؤشر العمل العقلي في صناعة التاريخ بمعطيات الوعي والذاكرة والادراك فما هي وظيفة الذكاء في صناعة التـــاريخ اذن؟ ان مناقـــشة الذكاء الانساني – كمحصلة عقلية – مسألة شائكة حقاً. فالـــذكاء اخـــضعته اهتمامات كثيرة لكثير من تنظيراتها وتوجهاتها تبعاً لما تراه هي فيه اكثر مما هـــو عليه او بغير ما هو عليه. فالمنادون بالارتقاء ونظريات التطور يرون ان الـــذكاء عمل ارتقائي يمتاز به اللاحق من الاجيال على السابق عليها. بمعنى آخر هو ناتج تراكمي للمعرفة. ويذهب منظرو الجدل الى ان الارتقاء صحيح في ذلك علـــى اساس ان تضادد الشيء والنقيض خارج بصراع هو المجمل الافضل وهو اســـاس ظهور العقل. ان علم النفس الاجتماعي والفسلجي له وجهة نظـــر اخـــرى في الذكاء الانساني تتلخص بما يلي:

(١) قد يصح ان يكون الذكاء مصنوعاً بعوامل تطويره وتوجيهه الى الاعلى من الهرم على اساس تقسيمات السلم الفكري الذي يبدأ بـــالتفكير الجبلـــي الاول وينتهي بالابداع .وقد يصح ان الفرد على انفراد والمجتمع مجتمعاً يناضل او تناظل فيه عوامله للخلاص بالعمل الفكري من الجبلة الفكرية مروراً بكل عمليات الفكر الانتقائي والتجريدي صعوداً الى المقام الابداعي (نظرية ماسلو).

(٢) قد يصح ان الذكاء مدرك معاصر مثلما هو يدرك سابق وعليه فـــإن علـــم النفس المقارن بين ذكاء سابق وذكاء لاحق يستفيد في عملية التطوير للجيل من هذه المقارنة القائمة.

(٣) قد يصح ان يكون الذكاء عملية انفعال وظيفي فسلجي مستجيب لضغوط البيئة، بالشكل الذي يؤدي فيه هذا الانفعال الى بروز الجديد من القدرات العقلية الذكائية الملبية للمستجد من الضغط البيئي. ان هذه الافتراضات في علم النفس في

التعاطف مع دعاة التطور والنصوصية المادية لها ما يقابلها من الردود ما يمكن ذكره على النحو التالي:

(١) ان ظهور حالات التخلف العقلي والتي لم ينقطع ظهورها على الرغم من كل محاولات تحسين المزاوجة والمضاربة وتلطيفات القضاء على الجوع والمحن الاقتصادية وحركات مقاومة الامراض الزهرية، يؤثر احدى حالتين:-

(أ) حالة وجود التخلف العقلي كظواهر فردية خاسرة في الجسد الاجتماعي تتحقق بصيغ فردية ولا يمكن الخلاص منها في عملية الارتقاء كأية حالة شائبة يمكن ان تصاحب اية عملية بناء ناجحة.

(ب) حالة راهنة في مسار إنساني لم يستطع لحد الآن الخلاص من خلل الجينات المورثة للخلل الدماغي (لا العقلي) تنتظر مساراً انسانسا عميق الامتداد في عمق المستقبل ليجلوها بالكامل. ان كلا من هذين الفرضين يمكن ان يكون صحيحاً على انفراد، كما يمكن ان يكونا صحيحين في آن.

(٢) ان كون الذكاء عملية انفعال وظيفي فسلجي لضغوط بيئة لا يخصص دماغ الانسان لشيء، لان المسألة لا تحتمل الا جانباً واحداً: مثيراً ومثاراً. وما دام الامر كذلك فالاستجابة غير المختصة سلفاً والمتخصصة بالحاجة يمكن ان تشمل الحيوان كذلك. وبالتالي فالذكاء كانفعال كان حصة الانسان الراقي ولم يرتفع الفرد الى ذلك ولا الحصان لسبق الدماغ (الآدمي) على أدمغة القرود والخيول. ولكن المسألة مسألة اثارة كما قلنا واستجابة. يعني هذا ان الذكاء ليس ميزة صانعة لتاريخ انما مصنوعة بالتاريخ الذي جعل الانسان في مقدمة ما خصهم بالانفعال والارتقاء بالاستجابة لهذا الانفعال.

(٣) ان كون الذكاء حاصل مقارنة يعني الاقرار بالتراكم المعرفي والاستفادة من الخبرة في الاتيان بذكاء جديد. يعني ان هذا مسلمة تاريخية. يعني هذا ايضا ان التراكم التاريخي المعرفي هو الصانع لذكاء بطريقة الاقتران. فمن هو المسؤول عن احداث المقارنة والاتيان بالجديد؟ ان ذلك يستدعي صناعة تاريخ للذكاء فهل سنضع التاريخ الذكائي المعرفي ام انه هو الذي سيضعنا (اختلاف مع النقطة ٢).

بعد هذه المداخلة بين تنظيرات ثلاثة: التطور والجدل وعلم النفس، ماذا يرى علم النفس من خطورة والجدل وعلم النفس، ماذا يرى علم النفس من خطورة في ذلك المسار العقلي على صناعة التاريخ؟ ان هذه المداخلة تحملنا على تصور ما يلي من الامور فيما يتعلق بالتاريخ ذاته:-

١- ان دخول العمل العقلي مرحلة الاختبار والتطبيق وفر له نزعة السيادة على باحداث التاريخ الغابرة التي لم تدخل هذا الطور من الاختبار. فماذا ابقت المرحلة الاختبارية في هذه السيادة من قدر وتوفير لقدسية التاريخ المفتقر الى التقنية والمختبر امام سيادة تقنينية معاصرة؟

٢- ان الاستجابة للبيئة المعاصرة بشكل مختلف عن الاستجابة للبيئة الغابرة حقق عنصر اهمال نفسي وتبجح معاصر من قبل الخلف على روح السلف. فحين استجاب الذكاء الانساني لمخاوف الانسان من الطبيعة وظوهرها في الفيضان والرعود والزلزال استجابات زراعية اولية (سلوك ذكائي اولي)، استجاب الذكاء المعاصر استجابة صناعية (سلوك ذكائي ارتقائي او بمعنى ادق: تحولي او انحرافي)، فكيف سنحاكم التاريخ او ننظر اليه في ضوء تغاير كيف الذكاء؟ امام هاتين المعضلتين نجد ان احداث التاريخ فقيرة امامنا وقاصرة عن ضرورة قراءها بغية الاستفادة منها الا بما يترحم به الاحياء على الاموات الغابرين. ان هذا هو المقتل

الذي يخافه علم النفس في الجيل من قيام قطيعة تاريخية بين الخلف والسلف. ان علم النفس بعد كل هذه المداولة بين العمل العقلي بمداليل الذاكرة والوعي والادراك والذكاء وبين صناعة التاريخ يعالج المسألة من جانب آخر:-

١- ان اختلاف التعامل مع الضغوط البيئية سلوك يستند الى الكيف لا الى الكم. وبالتالي فهو ارتكاز يستند الى التراكم المعرفي. وبروز ضرورة حياتية - وان كانت ذكائية الطابع - لا يلغي الكم المعرفي. فالعمل العقلي فطرة واكتساب. وبزيادة الاكتساب (الذي لا يأتي إلا بقراءة التاريخ قراءة مقارنة)، يزداد الافتراق عن الفطرة وبالتالي يحصل الارتقاء. وعليه فإن الارتقاء غير حاصل بدون الارتكاز إلى السلم التاريخي للمعرفة. وليس بالضرورة أن تنوب الصناعة في قيامها بديلاً عن الزراعة مناب حاجات أخرى ما يزال التاريخ المعرفي يغذينا بها ولا نزال مفتقرين إليه فيها. فالعلوم والآداب والفنون الغابرة ما زالت تمدنا بالكثير الذي قد بفوق ما قدمته التقنية من محاولات إلغاء لروح الأحداث التاريخية وقدرتها على العطاء.

٢- إن الذكاء المعاصر - على فرض انه ارقى ذكاء انساني حاصل - لم يستطع أن يقدم بديلاً لبناء نظم وقوانين اجتماعية علمية الأساس عن تلك التي أبدعها سلف التاريخ مما يجعل حالة استجلاء التاريخ من جديد امرا حيا ضرورياً.

٣- ان الذكاء المعاصر في كثير من المجتمعات المعاصرة لم يستطع ان يرتفع الى مصاف ذكاء غابر سحيق. فالمجتمع الهندي - وهو ذكي معاصر - ما زال يحرق جدث الميت - بتروع وجداني لا عقلي - والمجتمع الاسلامي والمسيحي ما زال (وسيظل) يدفن الجدث - بتروع وجداني قيمي طهراني مشوب بعقلانية - في حين ابقى الذكاء الفرعوني الغابر اجداث الملوك الفراعنة طرية مرئية بالتحنيط

الذي لم يسبر غوره المتحقق بذكاء غابر ذكاء معاصر. افلا يلزم ان يراجع الذكاء المعاصر ذكاء اسلافه في امور لم يستطع ان يجتازها بعد؟

٤- ان الذكاء المعاصر - كارتقاء - لم يزل من جسد الانسانية حالات التخلف العقلي لا بالمختبر ولا بالمزاوجة. والتخلف العقلي بمعاملات ذكاء واطئة حالة حاصلة في مسار التاريخ مثلما هي حالة حاصلة على مسار الانسان المعاصر.

٥- ان من اولى انتصارات العقل كمجمل والذكاء كمفردة هو اخضاع الوجدان الانساني لهيمنته وجبروته. واذا كان هذا هو المفترض فأين هي هيمنة الذكاء المعاصر على الممارسات الوجدانية التي قد يهتم فيها الذكاء الغابر بالقصور والاخفاق فيها؟ هل انتصر العقل المعاصر على العدوانية - كسلوك وجداني - في النفس؟ ان الانسان الزراعي كان يعتدي بالفأس في حالات هياجه وغضبه. ان الذكاء المعاصر يستطيع ان يفخر بالفوز على الذكاء الغابر اذا استطاع ان يروض الوظائف الوجدانية لخدمته والا فإن الذكاء كمفردة والعقل المعاصر كمجمل محتاج ان يقرأ التاريخ جديد.

٦- ان العمل العقلي يصنع التاريخ العقلي ولا يصنع التاريخ الوجداني والانسان العقلي بلا وجدان انسان ميكانيكي، آلي، ومسألة ترطيب الوجدان واخضاع المعرفة للقيمة اللصيقة بها لا تتم الا بقراءة التاريخ لابتعاث قيمه الروحية التي لا يمكن ان يكون الذكاء المعاصر مهما عظم بديلاً عنها[٦].

هوامش الفصل الرابع:

١- نزع كثيرون الى بحث ما توصل اليه العقل البشري في بحثه عن نفسه وركز هـؤلاء على امكانية صناعة ماد الـ (D.N.A). لقد حقق الدكتور آرثر كورنبرج من كلية الطب في جامعة ستانفورد الامريكية (وهو الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٦٧) مع زميليه الدكتور مهران كوليان (من جامعة شيكاغو) والدكتور روبر يشايمر من جامعة (كالتيج) الكثير في هذا الموضوع. لقد اصبح بمقدور العلم احداث تغيير ما في شفرة الحياة. وما حصل لحد الآن ان هو الا اليسير من المطلوب المعرفي عن مسيرة العقل وسبر تاريخه الذكائي. وقد حاولت بعض الدراسات ان تعتبر العقل الالكتروني مثيلاً للعقل البشري لمجرد ان كليهما يعملان وفق الشفرة الخاصة. ان هذا الاقتران مرفوض لاننا بذلك سنقوي ميكانيكية تاريخية للتاريخ نفسه. بمعنى آخر سيقوم التاريخ على اساس الكتروني وتصبح معه الاحداث التاريخيه منضرات مخزونة في جسد العقل الالكتروني او العقل البشري المبرمج على اساس الكتروني. ان هذا قد يصح في محاولات العلوم الالكترو - حياتية (سايبرنتيك) ولكن ذلك لا يصدق على حاجة المعرفة العقلية للتاريخ الى اساسين: الادراك البايولوجي الخلوي (الدماغي) والمزاوجة الوجدانية. والاساس الاخير (الوجدان) لا يمكن ان يوفره الاساس السايبرنتيكي مهما عظم وتضخم.

انظر:

(1) Norbert Wiegner: Cybemetics 1998 New York.
(2) (Cybernetics Within us) by yelena Saparina.
1966: peace publishers.

٢-التفتت الدراسات التي اهتمت بعمليات التحوير الفكري وتغيير الاتجاهات في الدماغ البشري التي يخضع لها قادة الحركات السياسية أثناء اعتقالهم والأسرى أثناء الحروب إلى الاستفادة من دراسة المحتوى الفاعل للذاكرة التاريخية بغية الهجوم المضاد عليها بافراغ تلك الاحداث من عنصر الجسامة والموضوعية التي تجعلها فاعلة مؤثرة في عقول معتنقيها واتباعها. فقد قامت ((المحاولات المخططة)) من قبل الشيوعيين لاقناع غير الشيوعيين بالتسليم بمبادئهم. وقد اشتق هنتر هذا الاصطلاح ((المحاولات المخططة)) من الاصطلاح الصيني (His Nao) الذي يعني ((تنظيف المخ)).

اما الصينيون فقد اطلقوا اصطلاح تقويم الافكار "Thought Reconnstruction" على تلك المحاولات.. قد افرزت الحرب الكورية (٥٠-١٩٥٣م) محاولات ناجحة في هذا المضمار واثرت الدراسات الكورية كثيرا في اقامة حاجز فاصل في ذاكرة الاسرى الامريكيين وخلقت لديهم

ظاهرة الاغتراب عن تاريخهم الامريكي وعدلت كثيرا من اتجاهم: انظر: الحرب على الدماغ.

٣- لقد افرزت ظاهرة الاحساس الفردي بفقر التاريخ واحداثه في تلبية حاجاته ظهور حركات ردة معاصرة في حياته انتقلت به الى عالم آخر مملوء بالاحلام والاوهام والسعادة والتيه والهيام والهلاوس. وجعلت الفرد منتمياً ليس الى تاريخه بل الى صيغ جديدة من صيغ التشرد. فجماعات الهيبيز Hippies او البيتنك Beatniks حركات ردة. وحتى ظاهرة الفجر لا تعدو كونها ظاهرة ردة فردية اتخذت شكلاً جماعيا لا حقا كتعبير رمزي لفقر التاريخ وهنا تدخلت عوامل اللاعلمية والخرافة والجوع عوامل معيقة للتلاحم بين الفرد وتاريخه. ان ثورة الجيل الغربي المعاصر على تاريخه الكنسي الذي حشر الكثير من انتفاعات الكهنة وحشى المخيلة الكنسية بالخرافات والاساطير، كانت ناتجاً اكيدا لظهور الانشطار الوجداني والعقلي السلوكي في الفرد الغربي باملاء هذه الخلوة التاريخية او الفجوة القاتلة بالكثير من الشذوذ والادمان على المخدرات بانواعها. ان ظهور الميثولوجيا كان تعويضاً عن اخفاق التاريخ علمياً في الهيمنة على افراد الاجيال اللاحقة. ولقد قامت حركة (الميثودست) الدينية الانجليزية في القرن الثامن عشر بإشاعة عبارات التخويف من الجحيم والعذاب لتعميق الشعور بالخطيئة. وكان قيام هذه الحركة استجابة لا شعورية ناتجة عن الشرخ الحاصل في ابناء الانكليز نتيجة رفضهم الاقبال على التاريخ الكنسي المليء بالوعظ الزائف وافتراءات الكهنة. ويذكر هيكر في كتابه (اوبئة العصور الوسطى) كيف تظهر موجات العنف والهستيريا المتجسده في فنون الاجيال اللاحقة لتلك العصور نتيجة النشأة العصابية الرافضة لتاريخ مخفق في تحقيق أمانيها.

٤- للتوسع في علاقة العقل بالفلسفة وانحياز الفلسفة الواقعية الحديثة الى مناقشة التطور العقلي عبر التاريخ ومناقشة اثر التاريخ على العقل في المنظور الفلسفي ارجو مراجعة:

١- د. محمد عمارة (المعتزلة ج٣).

٢- برتراند رسل: هل للانسان مستقبل.

٣- عبد الستار الراوي: ثورة العقل.

٤- عبد الرحمن بدوي: الانسانية والوجودية في الفكر العربي. مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧م.

(5) James, Wiliams: (1958): the Varjeties of Religious experiences: Amentor book.

٥ - ارجو مراجعة:-

١ - ابن خلدون: المقدمة، مكتبة المثنى، بغداد.

2- Sluckin, W, (1960): "Minds & Machines, pelican books.

3- Huxley. A. (1960):

"The Doors of perception" Penguins books.

(1) Hunter, Edward (1956):

"Brain Washing" Farrar, Strauss & Cudahy: New York.

(2) Hunter, M.L (1961) Memory, Pelican Books.

(3) Brown, J. A. C. (1963):

"Techniques of persuation" Pelican books.

(4) Anastasi ANNE (1960):

"Psychological Testing": Macmillan co. New york.

الفصل الخامس

اثر التاريخ في تكوين الشخصية

- أشخاص التاريخ كشخصيات
- الإبداع والاكتساب
- الشخصية والتحليل
- الشخصية والباراسايكولوجي
- عوامل الحدث التاريخي المؤثرة في الشخصية
- أنماط الشخصية المتكونة بالتاريخ
- محاور دراسة الشخصية الصانعة للتاريخ

حين توجه علم النفس ومنذ بواكير نشوئه كعلم إلى محاولة تنقيته من شوائب تداخله مع مجاهيل وتنظيرات اخرى، وجد لزاما عليه أن تكون الشخصية إحدى همومه ومستحوذات اهتمامه ورغم أن كل مدارس علم النفس التي افترقت عن بعضها في تنظيرها للنفس، لم تتفق على وضع ملامح محددة وتعريفات كاملة للشخصية بالشكل الذي يرضي لهم الباحثين أنفسهم، فإن تلك المدارس لم تستطع أن تهمل اثر التاريخ في تكوين الشخصية، لا الفردية منها ولا الاجتماعية. فما أن تقم دراسة ما برسم البنية الفيزياوية والصورة الفسلجية والمقتربات العقلية والملامح الوجدانية في شخصية ما، حتى تجد ان للتاريخ باحداثه ومساره اثرا ملموسا في رسم هذه البنى والملامح. وفي علاقة التاريخ بشخصية سلالاته تبرز متداخلات كثيرة يهم علم النفس كثيراً الخوض فيها وتأثيرها.

ان التاريخ مصنوع بثلاثة عوامل: الزمن والإنسان والموضوع. وحين يؤشر الزمن صورة الحدث بامتياز مرحلي تدخل فيه عوامل الجغرافية والانثروبولوجيا، فإنه يؤشر بذلك استقلالية الحدث عما سواه ويجعل منه نقطة دلالة يرجع إليها كشاهد أو يستفاد منا كدرس حي واقع. وحين يؤشر الموضوع مادة الصراع في الحدث التاريخي، التي من اجلها قام الحدث نفسه، إنما يؤثر حقيقة ان أحداث التاريخ لا تبتنى على هراء، إنما على حقائق في المحتوى ترسم شكل الحدث وطبيعته. وهذان المؤشران أو العاملان: الزمن والموضوع لا يحققان حدثاً دون توفر العامل الديناميي معهما بل وفيهما واعي به الإنسان. وحين

يدخل الإنسان في مسار الحدث، إنما تدخل شخوصه وشخوصه في علم النفس هي شخصيته بما فيها من السمات والجزيئات والدقائق التي يشكل مجملها مآلا نهائيا فاعلا إلى جنب هذين العاملين في صنع الحدث التاريخي. وهنا يدخل علم النفس من جديد في محاولة فك مداخلة قائمة تعذر على كثير من الباحثين إبداء الجزم فيها، تلك المداخلة التي تنشطر شطرين متسائلين: هل تصنع الشخصية حدث التاريخ ام يصنع الحدث شخصية صاحبة الفاعل فيه؟ نكاد نكون قريبين من الصواب اذا قلنا ان الشطرين من التساؤل قائمان لا يفصلهما فاصل الا اذا قررنا ان الشخصية التي تصنع الحدث هي التي تجعل من الحدث محدثة سلوكية مكتسبة وتؤثر أو تسهم في صنع شخصية اللاحق من الجيل في الهرم الاجتماعي لتلك السلالة البشرية المنحدرة من صلب صناع الحدث نفسه. وبالتالي فهي حالة متداخلة لا يتم الفصل فيها لانه مضر بها أصلاً. ان الجيل المعاصر القارئ لأحداث جيل سابق عليه بطريقة استلهام روح المفاعلة والاسترشاد بموجبات تلك الأحداث ومعطائيتها، تنطبع شخصيته بطابع الاستلهام فيؤثر فيها ويخرج بها شخصية ذات سمات مختلفة عن سمات شخصية أخرى في جيل آخر وفي مجتمع آخر. وتكاد صعوبة وضع تعريف محدد للشخصية لا تقف حائلاً دون مناقشة فعل الشخصية في التاريخ أو فعل التاريخ في الشخصية. فبلغة الحصر كشخصية من خصائص الشخصية أو سمة من سماتها يكفي ان نعرف ان الحدث التاريخي بأثره هو أحد هذه الخصائص ولا يقف إهمال الخصائص الاخرى التي تدخل فيها البايولوجيا والفسلجة كمؤشرات اخرى في التعريف بطبيعتها. ويتساءل بعض الباحثين عن دور المستلم بالوراثة والمكتسب بالتاريخ كبيئة في الشخصية وتحديد دورها في الفعل. فيقول بعضهم ان الشخصية تصنع الحدث بعطائها الذاتي المحمول على جينات الخلية وكمية هورموناتها وتكوين ادمغتها دون ظهور اثر

للاكتسابات في المحيط بما فيها سوابق أحداث التاريخ في إعاقة الفعل أو تقدمـــه. بينما يقول البعض الآخر ان الشخصية لا تكتفي بالحصيلة الذاتية فيها في الإسهام في الأحداث ما لم تتدخل مؤثرات الأحداث السابقة في إرشادها إلى الاســتفادة منها والتصرف في ضوئها. ان الفريق الأول يحاول ان يركز على الطبيعة الإبداعية والطاقة الابتكارية المجددة أو الخالقة للجديد. وهذا الفريق بمحاولته تلك يذهب إلى ان إسهام أحداث التاريخ في قيادة النفس لخلق جديد توهين لعنصر الإبـــداع في الشخصية وتأشير لعنصر المحاكاة والتقمص لروح السلفية في رفد الجديد الذي سيأتي ازدواجاً متأرجحاً جامعاً لنقائض الماضي والحاضر بما يحطـــم في الحـــدث المعاصر حيوية الصيرورة وجدة الابتكار. أما الفريق الثاني فإنه عندما يقرر أثـــر المكتسب المستفاد من أحداث التاريخ وبيئة الماضي في صنع المعاصرة،

إنما يعتبر الإبداع حالة استنباط من موجود سابق وليس بالضرورة أن يكون مقطوعاً زمنا، وان الشخصية واعية وحية في الوعي طالما ظلت قادرة على تشوف الزمن العميق للأحداث. والإبداع كذلك في نظر هذا الفريق حالة ابتناء جديـــد على مجد قديم ليس بالضرورة تحطيمه أو قطعة لتتحقق حالة الإبداع. وبين ما يراه الفريق الأول والثاني يبرز باحثون أنثروبولوجيون ليقرروا إن الارتقاء الإنـــساني شامل أيضا لشخصيتة لان ارتقاء عقلة بالصيغة الدماغية متزامن مع ارتقـــاءات عديدة أخرى منها وجدانه ووظائفه المزاجية وطريقة تبنية لهياكلها الاجتماعيـــة عقليا والتي تدخل الشخصية الإنسانية واحد من أركانها الأساسية. ويرى هؤلاء إن الارتقاء لا يتم إلا اذا توفر ما يرتقى عليه ويعنون به التـــراث. إذن فالحالـــة لديهم حالة تسلسل وحالة التسلسل هذه لا تلغي الاعتراف بـــسابق درجـــات الكفاح من أجل التفوق وان الذاكرة فطنه للمجمل مثلما هي فطنـــة للأجـــزاء الشاملة للماضي التاريخي.

ان علماء السلوك لا ينفون تدرجات السلوك في الشخصية وانما يؤكدونها. وهم في طرفهم ومحاولاتهم العلاجية، إنما ينحون منحى الانتصار على الخاطئ في المسار الشخصي في الحدث التاريخي لكي لا يتكرر في حدث تاريخي لاحق. وهم كذلك يعتبرون المسار الانساني فارزا للخطأ والصواب وتدريب الشخصية على جعلها مبتكرة ومبدعة، انما ذلك حاصل بجعلها مستفيدة من معيقات الابتكار ومعطلات الابداع في حدث سابق في تاريخ السلالة أو السلم الاجتماعي[١]. ومدرسة التحليل لا تبتعد عن مثل هذه الاجواء، انما تقدم رأيا في تكوين الشخصية أيضا. فعلماء هذه المدرسة قسموا مراحل نضج الشخصية في الفرد على سلم الزمن اعتبارا من اليوم الاول للولادة. فقالوا بمرحلة الفم ومرحلة الشرج ومرحلة التمثيل الجنسي ومرحلة المراهقة. واعتبروا أخطاء الاحداث باشباع أو حاجة الى اشباع تاريخا للفرد وبالتالي في تاريخ للمجتمع. واستندوا الى ظواهر الانتكاسة او التثبيت التي يعانيها الفرد بالعودة اليها عل أنها احداث املت على الفرد قدرتها في استجابة اليها بارتكاز شخصية اليها وعجزه عن تجاوزها في خلق شخصية جديدة[٢]. فصارت حياة الفرد وفي نظرا هذه المدرسة بالذات هي سلم أحداث وهي تاريخه الرمزي الدال على التاريخ الكبير للإنسانية الشمطاء.

يبدو من كل ما تقدم ان الشخصية هي المجمل ولأنها كذلك فهي ناتج جامع لقدرات الاكتساب وقدرات الذات. وما دمنا بصدد مرور سريع على آراء مدارس عديدة في مناقشة علاقة التاريخ بالشخصية فلا ضير من تصدينا باقتضاب لرأي علماء السلوك الفائق الذين يعدون الانسان المطلق هو الغاية النهائية لتحورات السلوك والتوائه، وان القدرة المطلقة شاملة لشخصية الإنسان المطلق.

فالانسان المطلق في الباراسكايكولوجي هو الصيرورة النهائية للسلوك عقلا ووجدانا وشخصية. وشخصية الانسان المطلق هي شخصية المثال الذي انتصر باطلاق الفائق على معيقات النماء والتسامي بها الى مآلها النهائي. ويرى هؤلاء ان الشخصية واحدة ولكن اختلافاتها ناتج من نتائج المعيق الكاف للظهور ومن تللك المعيقات أو أولها التاريخ. ولكن بعض المعترضين في نفس تلك المدرسة الباراسايكولوجية يرى ان استلهام احداث التاريخ التي أشرت بالاحصاء ظواهر الخرق واستجلاء الفائق يمكن ان تكون بل يجب أن تكون مدعاة لتمثلها والاستفادة منها في خلق شخصية الانسان المطلق الجديد والذي نستطيع استنتاجه بالاجمال من كل هذه التنظيرات ان الشخصية مغيرة في التاريخ ومتغيرة به وان احداث التاريخ مغيرة للشخصية ومتغيرة بها. كما نستنتج كذلك ان عنصر التزاوج بين اثر التاريخ في الشخصية وأثر الشخصية واثر الشخصية في التاريخ عنصر قائم متلاحم ابدا. وهذا الاستنتاج يقودنا بالضرورة الى المعرفة الشخصية كمفرزة لاثرالتاريخ كما يقودنا الى معرفة التاريخ واحداثه كمفرزه لاثر الشخصية فيه. ان اثر الحدث التاريخي في الشخصية يبدو جليا في مناقشة المالات التي تتكون بها تلك الشخصية او تؤول اليها كناتج لذلك الحدث على نحو مما يأتي:

١- **طبيعة الحدث التاريخي**:- ان احداث التاريخ تمتلك من الطبيعة ما يجعل تصنيفها امرا مهما بغية دراستها اولا وتبين اثرها على شخصية مجتمعها وافرادها ثانيا. فقد تكون الظاهرة التاريخية سياسية او اقتصادية او ثورة فكرية او انقلاباً تقنياً او حركة زراعية او هيمنة تجارية او ظواهر عنيفه او معركه حربيه وعندما يقرأ الجيل تاريخه انما يقرأ طبيعة تاريخه وينطبع به، بالشكل الذي يرسم فيه شخصية التماثل والتقمص لادواره، لانه تراثه ولانه منشد لذلك التراث كتطبيق

نفسي لامتداد الانا الاجتماعي الى الوراء العميق. فالتاريخ الفكري بما يقدمه من احداث فكرية ونزوعات ثقافية، يخلق شخصية اجتماعية فكرية لا تغاير السلف بل تنشد فيه المحاكاة او المماثلة. وتاريخ العنف والدماء اسقاط لروح العنف على ابنائه اللاحقين بما يماثل ذلك التاريخ. ووريث تاريخ المجتمعات الزراعية والتجارية هو وريث للزراعة بنمط المحاكاة وحفاظ القيم التي اودعت فيه امانة في العنق. ومثل ذلك يقال عن انفجارات السياسة والتقنية والثورات الصناعية.

٢- **دينامية الحدث التاريخي**:- ليس كل ما في التاريخ يستطيع ان يحمل اثره الى اللاحق من الاجيال، فهناك احداث تاريخية ولدت لتموت. وعوامل موتها كامنة في فقدانها القدرة على العطاء لخصوصية في مهمتها او لانحسار في فكرها او لقطع في زمنها او لمرحلية في حدوثها. فالذي يبقى خالدا في ذاكرة الجيل هو الحدث المفيد. والشخصية الفردية او الاجتماعية لا تنفعل بالساذج من التاريخ ولا تتطلع الى ا ستبعاث الوليد الميت منها. وبذلك فدينامية الحدث هي الفاعلة في شخصية الفرد والمجتمع لأنها تقطع على الزمن أثره وقدرته على طمرها فتكون بذلك مادة صالحة للتأثير في رسم شخصية القارئ للحدث بمثل ما طبعت به شخصيات معاصريه أو ربما يزيد.

٣- **صدق الحدث التاريخي**: ليس كل ما في التاريخ صادق. والصادق هو ما يمكن تصديقه. والذي يمكن تصديقه هو القريب من الحقيقة، البعيد عن الخرافة، القريب من الواقعية، البعيد عن المثالية. والشخصية الاجتماعية المعاصرة تتبنى متقمصة أو محاكية او مستبطنة الصادق من الحدث. فحتى في كرم حاتم الطائي يمكن ان تروى احداث صادقة واخرى كاذبة. فمن هو المخبر الحقيقي عن صدق صادقها او كذب كاذبها؟ ان المخبر هو الحدث نفسه، فما قبل به الوجدان

الاجتماعي المعاصر وتقبله الوعي الاجتماعي صادق، وما نفر عن قبوله الوجدان ورفضه العقل كاذب. والحث الذي يحدثه كرم حاتم الطائي في تمثل سماته في الشخصية العربية المعاصرة رهين بالصادق من كرمه في المروي عنه لا بالكاذب الذي اضافته مخيلة الرواة وادعياء المبالغة. والحث الذي تحدثه شجاعة عنترة فاعل في خلق شخصية جيل عربي شجاعة بالمعيار الصادق لحدود الشجاعة الاجتماعية، بعيداً عن التهويل في حكاية الحدث او الاحداث التي عاشها او خلقتها شخصية عنترة المقاتل.

٤- **ارتباط الحدث التاريخي بروح العصر**: الاحداث التي لا تهمنا لا تؤثر فينا والتي لا تؤثر فينا لا تطبع شخصيتنا بشيء. ويسري هذا الارتباط على تسلسل الفكر والاقتصاد والميثولوجيا والاعراف بما يتواكب منها او ما لا يقوى على المواكبة.

ان وجود هذه العوامل الاربعة في الحدث التاريخي يجعلها تعمل مجتمعة في صنع شخصية اجتماعية لاحقة عليها في المسار الاجتماعي المتبني لذلك التاريخ. وتؤدي هذه العوامل بعد ذلك الى احداث انماط عديدة من الشخصية في الفرد او في المجتمع الوارث لاحداث التاريخ[٣] وبالتالي فان هذه العوامل الكامنة في الحدث هي التي تسهم بدرجة كبيرة في صنع ما يمكن ان نعتبره ناتجاً لها مثل:

١- **الشخصية العصابية**: ان احتشاء التاريخ الاجتماعي لشعب من الشعوب باحداث القهر والاضطهاد والحرمان والنكبات مؤثر فاعل في طبع البنية الاجتماعية في اجيالها بطابع العصاب بما يجعل من ذلك المجتمع هيكلاً عصابياً تعتريه آفات القلق وتسود حياته اجواء الرهاب والحصار والرحام في أبنائه. وعندما نتحدث عن شعب من الشعوب بلغة المجمل على انه شعب قلق او شعب

حصري او رهابي فيجب ان نضع في حسابنا أثر تاريخه الذي اورثه. ولن نجد في ذلك التاريخ الا الاحداث المليئة بسيادة الاضطهاد للفكر وشيوع الحرمان الثقافي وانتشار معالم الرعب والخوف والاذلال الاقتصادي. والاجيال التي ترث تواريخ الجوع والظلم الاقتصادي. وهيمنة النظم التي تشيع الخوف وكأنها مجاهيل امـــام شعوبها والتي تناصر ظلامات الفكر، اجيال ناشئة بشخصية عـــصابية مخفقـــة في مسارها، متعكرة المزاج، هستيرية التعامل بما يجعلها محتقنة، متشنجة، ومتطيرة من كل شيء ومن أي سيء.

٢- الشخصية الفصامية: ان تاريخ الشعوب الذي يفتقر الى الثقافة والى ظهور حركات فكرية، يستبدله شعبه وفق آلية التعويض بتاريخ طوطمي، غيبي، هيولي، تفصله الميثولوجيا الواهمة عن عالمه الواقعي المطلوب، وينحدر فيـــه العقـــل الى الاحتشاء بيوتوبيا المثال مما يحتم على أبنائه ان ينعزلوا مع عزلة الفكر الى الداخل .بما يحدث حالة من حالات الفصام في شخوص أبنائه. ان الفصام معـــضلة مـــن معضلات التاريخ الانساني امام افراده ومجتمعه. ومن احصاءات علم النفس التي تدلل على شيوع الفصام في المجتمعات واطئة الثقافة، نستنتج ان الفقـــر الثقـــافي التاريخي والحرمان الثقافي الاجتماعي من معطيات تاريخية ثقافيـــة ملجـــيء اولي للمخيلة الاجتماعية الى تعويض حاجتها واستبدال كل هذه النقيـــصة المعرفيـــة بالهداء والتخريف غير القائم على الموضوعية والعقلانية، وهذا سبيل مـــن ســـبل نشوء الفصام الاجتماعي عن المجتمعات الاخرى. ان اخفاق التاريخ كأحداث في تحقيق ثورات فكرية على عوالم السحر وهذاءات الطوطم وتحطيم قماقم التـــابو، سبب كبير في خلق شخصية اجتماعية خائفة من المجهول، سرعان ما تنفصل عن الوجدان البشري الشامل لتتروي في عالمها الخاص تجتر فيـــه عنـــديات واهمـــة وابتناءات زائفة تنسجم تماما مع معالم الشخصية الفصامية.

٣- الشخصية المكتئبة: وهنا نريد ان نبين فارقا بين اثر التاريخ العصابي واثـــره الاكتئابي على شخصية ابنائه الوارثين. ان الفارق في الشخصية في كونها شخصية عصابية او مكتئبة ناتج من فارق طبيعة الاحداث التي يحملها تاريخ ذلك المجتمع. ان التزامن بين المعاصرة في الفرد وتراثه هو المقياس لنشوء او عدم نشوء الشعور بالذنب طبقاً لما يمكن ان يكون عليه حاضر الفرد في المجتمع او المجتمع كمحصلة ناتجة مقارنا بماضيه. فالماضي السعيد المليء بالفتوحات العلميـــة والاشـــراقات الفكرية المقترن بحاضر فاشل مخفق في تحقيق ارادة ابنائه في العطاء ايذان بالشعور بالذنب الذي يعد نواة اولى في شيوع الاكتئاب الاجتماعي بما يولد لذلك المجتمع نمطاً من الشخصية المتميزة بعزلتها ووجومها وانطوائها على نفسها وانحسارها عن المجتمع الانساني الكبير مسقطة الذنب الحاصل من عدم نجاحها في محاكاة الماضي على ذاتها الراهنة. والشخصية المكتئبة شخصية منتحـــرة بالأقـــساط، تـــوزع اجترارات الانتحار التدريجي على مسارب ونواحي حياتها في الاقتصاد والفنـــون والعلوم والآداب. فهي مهملة للقوام المطلوب منها كبنية اجتماعية يجب ان تحتل مقاما مرموقا بين المجتمعات الاخرى. والانتحار الموزع على مجالات حياة المجتمع هو ناتج اليأس من اعادة بناء الذات ودعم المعنويات بالتـــصعيد المـــستمر. وفي الوقت الذي يسود الشخصية الاجتماعية العصابية التطير والتشتت وتمزق القرار في تمييز الصواب في الامور، يهيمن الركون والخمول والاحجـــام عـــن العمـــل والخذلان والانطواء على الشخصية الاجتماعية المكتئبة. ان هذا هو حاصل اقتران ماض تاريخي مشرق مع حاضر مريضي فكيف لو اقترن حاضر مشرق انتصر فيه ابناؤه على ماض مخفق سقيم؟. ان اخطر ما يخشاه علم النفس في حالـــة الزهـــو وخيلاء Ecstasy التي ربما تعتري الجيل في انتصاره على اخطاء ماضي اسلافه ان تتحول الى حالة من حالات العظمة Grandeour stute. ان هذه الحالة اذا مـــا

تحققت فإن حالة اخرى من الانقلاب في الشخصية الاجتماعية يمكن ان تتحقق وهي الطابع الهوسي في الشخصية. وعلى الرغم من اننا لا نملك مصطلحاً نفسياً بأسم ((الشخصية الهوسية))، الا ان سمات الهوس ونواته ظهور آلية العظمة يمكن ان تطبع الشخصية الاجتماعية ببعضها. والشخصية ذات السمات الهوسية هـي شخصية لحوحة، لجوجة، غوغائية، صاخبة، تقول اكثر مما تعمل وتلهو اكثر مما تجد، تسودها السطحية والسذاجة واضطراب الافكار وتطايرها وتعتريها صعوبة اتخاذ القرار. وبذلك يتحول انتصار المجتمع بهذا الازدهاء الى خيبة لاحقة وانحدار حضاري جديد. واسلم الطرق التي يوصي بها علم النفس الاجتماعي هو خلـق حالة الموازنة بين استيعاب اخطاء الماضي والانتصار عليها بقدرة معاصـرة مـع الحفاظ على الاتزان الاجتماعي ومحاربة نزوع النرجـسية والتعـاظم والفخـر الفضفاض الذي يبعد البنية الاجتماعية عن روح العمل الدؤوب المستمر.

٤- الشخصية السايكوباثية:- ان السؤال الذي يطرحه دارسوا التاريخ دائمـا امام علم النفس هو: هل يرث مجتمع من المجتمعات خطأ اسلافه بشكل بايولوجي لا يمكن التغلب عليه ام يرث ذلك المجتمع ذلك الخطأ بالاكتساب الذي لا يعدو كونه عادة من العادات سرعان ما تزول باعادة التعليم والتأقلم للجديـد مـن الاكتساب؟

ان الاجابة عن هذا السؤال صعبة نوعا ما. فعلـى الـرغم مـن كـل الدراسات التي تركزت حول طبيعة وجذور الشخصية السايكوباثية في الفرد فإنها لم تخرج بحصيلة وقورة في ايجاد اصول مرضية مختبرية واخطاء بايولوجية في خلايا هذه العينات بالشكل الذي يؤشر سبب هذا الاعتلال. وسلامة الفحص المختبري لفرد سايكوباثي يجعلنا نعتقد ان الشخصية السايكوباثية يمكن ان تكون ناتجاً من

نتائج البيئة اكثر من كونها ناتجاً موروثاً من خلايا معتلة او استلاما مختبرياً من اعراق سايكوباثية سابقة.

وبتوصلنا هذا نستطيع الذهاب الى القول ان ظروف التاريخ الاجتماعي مسؤولة مسؤولية كبيرة عن طبع شخصيات افرادها في اجيالها اللاحقة بطابع السايكوباثية والاعتلال الاجتماعي. وتدخل ضمن هذه الظروف سيادة النظم السياسة الواغلة في التاريخ والتي تعزز ظواهر القهر والاضطهاد والعنف في ابناء مجتمعاتها. كما تدخل فيها ثقافات المجتمع الغابرة بأطرها الدينية والالحادية او المعتدلة (الليبرالية) في نظرتها او ما يعتري تلك الثقافات من تحريف لمنافع خاصة تمليها الضرورات. ولذلك تبرز اهمية صحة النظام الاجتماعي وسلامته في تخليص ابنائه من علل الشخصية واخطائها. ان الفقر والحرمان والتخلف الفكري مدعاة لانحدار الفرد الى مهاوي الخطأ وارتكاب الممارسات التي يتجرد فيها عن لصيق القيمة الاجتماعية به. فالشخصية السايكوباثية هي ذلك النوع المعتل الذي لا يملك صاحبه قيما ذاتية لشيء اجتماعي او معيار بيئي، فلا يرتدع من خطأ ولا يحسب لفضيحة حساباً. والمجتمع الذي يستلم تاريخا مليئا بسقوط قيمه مجتمع سايكوباثي لاحق، تشيع فيه اخطاء السرقة والادمان والشذوذ. والمجتمع ذو الشخصية السايكوباثية غير قادر على اصلاح نفسه وغير قادر على اعادة قراءة تاريخه وتنقيته من شوائبه. ان قراءة معارك التاريخ يجب ان لا تكون بمعزل عن قيمة هذه المعارك وهدفها السامي من اجل كرامة وحياة ابناء ذلك المجتمع والا فإنها تتحول بعد ذلك الى اساطير وروايات عن تاريخ دموي وبطولات فردية ربما تعمل عملاً سالباً في اذهان الاجيال. ان بطولة عنترة لا يمكن مقارنتها ببطولة خالد بن الوليد وحتى بطولة خالد بن الوليد قبل اسلامه لا يمكن مقارنتها ببطولته

بعد اسلامه، لا لشيء في الكم او الكيف من المعيار انما فقط لعوز البطولة الى الهدف في طبعها بطابعها القيمي والذي يجعل منها كتلة تاريخية متجهه.

ان محاصرة المبادىء الهدامة في التاريخ والتي كثيرا ما تظهر بين مدة واخرى على ايدي اعداء الامة والناقمين على مجدها محاصرة للخطأ ومحاربة لظهور او احتمال ظهور النزوع السايكوباثي في الجسد الاجتماعي(٤).

ناقشنا لحد الآن سمات الحدث التاريخي في طبيعته وديناميته ومحتواه التي تجعل منه عاملاً مؤثراً في رسم معالم شخصية شعب من الشعوب او مجتمع من المجتمعات. وناقشنا كذلك انماط الشخصية التي يمكن ان تنفرز في ضوء ما تفعله احداث التاريخ. ان مناقشة هذه النقطة الاخيرة ربما يمكن تفسيرها على ان التاريخ هو الذي يصنع شخصية الفرد والمجتمع. يعني هذا ان شخصية الفرد هي صناعة تاريخية. اذا كان الامر كذلك فإن ذلك له تفسير آخر ربما يكون على جانب كبير من الصحة. هذا التفسير يعني خضوع الشخصيه لقدريه مقننه لسماتها وهذا هو الخضوع الكامل او الاستسلام الكامل من قبل الشخصية الفردية او الجمعية للسلم التاريخي. فأين هو اثر الشخصية على احداث التاريخ؟ فأحد عوامل صنع الحدث عامل شخوصه وسمات شخصيات القادة المفكرين – على الرغم من تأثرها بأحداث التاريخ – فهي مؤثرة فيه. ولولا وجود شخصية متصالبة كمحصلة لما استطاع شخوص التاريخ ان يصنعوا التاريخ. اذن كيف تستطيع الشخصية بالرغم من اثر التاريخ في تحديد نوعها في الاعتلال او السلامة التأثير في التاريخ بحيث تصبح مقولة ان الاشخاص هم الذين يصنعون الحدث بسمات شخصية مقولة صحيحة. ان الشخصية الصانعة للحدث الممثلة بالفرد او مجموعة الافراد يجب ان تدرس اولا. فدراسة شخصيات الحدث التاريخي تضع

الحدث على محك دقيق من التصنيف والاختبار بغية دراسته والاستفادة منه واستنباط فوائده او رفضه وحشره في دوائر النسيان لان رداءة مواضيع التاريخ او جودتها تتعلق بشخوصه (صناعه) وبالتالي في طبيعة شخصياتهم. ولهذا فحري بنا ان ندرس الشخصية الصانعة للحدث التاريخي في محورين:-

١- محور الاعتلال او السلامة النفسية:- ان الشخصية التي تعاني من الاعتلال وما يشمله من صنوف الامراض تلعب دوراً كبيراً في طبيعة الحدث التاريخي. فالشخصية العصابية التي تهيمن على مسار الفرد تولد لديه ضغوطاً مريضة وهواجس غير ناضجة يمليها على الحدث فيخرج به حدثاً مسيئاً الى مسار الانسانية ويجرح بذلك سلامة الهيئة الاجتماعية التي ينتمي اليها. وما اكثر الثورات الفكرية والسياسية والاقتصادية التي قادها افراد ذوو شخصيات عصابية لم تشف فيهم اعتلالات الرهاب والرحام ونوازع القلق والتطير فانحرفوا بتلك الثورات عن مسارها المطلوب واقحموها في مطبات خاطئة جرت على مجتمعاتهم الويل والتمزق.

والشخصية العصابية تعاني أساساً من الإضطراب الوجداني والالحاح الطفولي غير الناضج وهيمنة المصالح والحاجات الفردية وشيوع النرجسية والتأكيد على الذات بالشكل الذي يجعل النزعة الفردية واشباع الرغبات الخاصة التي تعتري تلك الشخصية اصلا، بديلاً من الهدف السامي الكبير الذي من أجله يثور الفكر على اخطاء الاجتماع والاقتصاد والجهل والحرمان الثقافي. والشخصية المكتئبة لا تستطيع ان تصنع حدثاً تاريخياً سليم المسار، معافى من ارهاصات الاكتئاب في شخوصه واضطراب الوجدان فيهم. فشخصية الكئيب تعاني الاخفاق في الطموح وتميل الى الانكفاء والتقوقع وهذا ما يعاكس المنشود في

الاحداث التي يراد بها الذهاب بالجسد الاجتماعي الى مصاف الانفتاح والاشراق، ومثل هذا الانسحاب المفجع على الحدث يمكن ان نعول اليه عندما نجد في قراءته اثرا لظهور شخصيات سايكوباثية او فصامية. فعندما يسود التروع الفردي والاستحواذ وسقوط قيمة الحدث في اذهان محدثيه، يبرز بديلاً من ذلك افتراق الموضوع عن الحدث وتظل في قائمة اشباح الحوادث نفسها بما يذكر فيها من دماء وعنف اذا كانت طبيعة الحدث حربيه او عنيفيه أشباح التصاغر الفكري والانحسار الظرفي والاقليميه والاقتطاع الزمني اذا كانت طبيعة الحدث فكرية ثقافية. فالسايكوباثي لا يرتفع الى طموح جماهيره ولا ينشد حاجات الضمير العام ومن اجل ما يستهون هو او يرضي خصوصيته لا يهمه ان يحول الحدث التاريخي الى مهاوي الذاتية والمنفعة فيصير الحدث التاريخي تعبيراً مرحلياً محصوراً بفرد او افراد، مفتقراً الى الشمولية واحتضان حاجات تاريخية كبرى لمجتمعه الكبير. وكثيرة لدينا احداث التاريخ التي فقدت الكثير من موضوعيتها وعقلانيتها على ايدي شخصيات لم تستطع الخلاص من ربقة العصاب او الاكتئاب او السايكوباثية او التروع الفصامي.

والشخصية الفصامية في الحدث لا تستطيع ان تتخلص من آليات المرض والوهم اولها. فهي راجمة للمحيط حولها بوابل الاتهام والحنق والضيق بمقدرات الآخرين. والحدث الذي لا يستقطب طاقات وقدرات جماهيره لا يكتسب صفة الخلود في جسد التاريخ.

٢- محور الشخصية الاجتماعي (المكتسب): تكسب البيئة الفرد كثيراً من المعطيات العقلية والوجدانية وتلعب دوراً كبيراً في تحوير وتطوير قدراته العقلية وتلطف أو تكيف كثيراً من وجدانه بالشكل الذي لا يمكن أن نفعل في الفرد اثر

البيئة فيه، وعلى الرغم من الحقيقة التي يقررها علم النفس في انفصال الاعتلال الشخصي عن العمل العقلي وعدة اعتلال الشخصية عنصراً قائماً يمكن ان يكون متوفراً على الرغم من توفر السلامة العقلية الا ان كثيراً من الذهان وكثيراً من العصاب يمكن ان يحدث خللا واضحا في الشخصية لذلك الفرد المصاب بالذهان او العصاب كمرض. وكثيراً ما نجد ان السايكوباثيين – وهم معتلون شخصياً – يتمتعون بذكاء عال – والذكاء ميزة عقلية – كما نجد ان كثيراً من المكتئبين توفر لهم عزلتهم وانطواؤهم فرصة الاستفادة من تلك العزلة في نواحي التثقيف والاطلاع (راجع: تشرشل رجل واربعة وجوه. مترجم. بقلم انتوني ستور وآخرين. بيروت، ١٩٧٩). ولهذا فإن اثر البيئة في الشخصية يتجلى فيما يأتي:-

أ- **الثقافة:** فالتثقيف الذي يتخذه المجتمع برنامجا ثابتا يخضع ابناءه له، يؤثر في خلق مدارك اجتماعية واعية تقرا الاحداث التاريخية ببصيرة ثقافية ناجحة واستكشاف مشرق خال من التاثر بالخرافة والوهم والغيبة واستطلاع احداث التاريخ بعلميه وصدق.

ب- **الانتماء:** تلجيء البيئة الفرد الى البحث عن ذاته في اقرب محطات الائتمان على تحقيقها. والفرد سرعان ما ينتمي الى المجتمع الذي يحقق له حاجاته الاولية في الغذاء والكساء والسكن والامن. وتنخلق بتأثير ذلك شخصية فردية منتمية الى مجتمعها. والانسان المنتمي الى مجتمعه مدين ثابت له، لا تنفصم عرى انشداده اليه وبذلك فهو مطالب في لا وعيه بأن يكون قريباً من مجتمعه، وبذلك فهو يدخل في الحدث التاريخي كعنصر مشرق يحاول ان يستقطب رضا جماعته ولا يولد نفرتهم منه لانه لا يستطيع تمثل ناتج اللا انتماء الذي يحقق ساعة انسلاخه وانعطافه الى تحقيق مصالحه لوحده. ولدينا في التاريخ شواهد كثيرة تؤكد ان

المجتمعات تنتخب لقيادتها الافراد القريبين من مشاعرها المنتمية اليها وسرعان ما تتأثر شخصية هؤلاء الافراد بمطلب جماهيرها وتتخلى عن كثير من اعتلالهـــا ان وجدت كسباً لود ذلك المجتمع واستمراراً في انتمائها اليه.

ج- **العادات والطقوس**: مثلما لكل مجتمع طقوس في مناحي الحياة العديدة فإن لكل افراده - بدرجات متفاوتة - نسباً من هذه العادات والطقوس. وتطبع تلك العادات الشخصية في الفرد بها وسرعان ما يكون اسيرها. والشخصية المنتــصرة الرائدة هي التي تستطيع ان تحطم الضعيف والمخطوء من هذه العادات بحيث تخلق حالة من الاتزان بين سورة الرفض فيها وبين الانقلاب على طقوس المجتمع الواهنة المختلفة وتخرج بمحصلة ظافرة على طريق بناء المجتمع والفرد[٥].

هوامش الفصل الخامس:

١- يقول الدوس هكسلي Aldous Huxley: ((كان تغير الانسان تشريحاً وفسيولجياً قليلاً جداً خلال العشرين او الثلاثين الف سنة الماضية. فطبيعة الطاقات التكوينية للطفل الذكي اليوم هي اساسا نفس طبيعة الطاقات التكوينية التي ولد بها طفل في اسرة كانت تسكن الكهوف في العصر الحجري القديم. ولكن بينما ينمو الطفل الذكي في العصر الحاضر ليصبح أي شخص ما كان يصبح مهندساً او عازف بيانو او استاذاً كيميائياً يعتقد باللااراديه المبهمة ويحب الرسم بالالوان المائية فإن طفل العصر الحجري كان لا يمكنه ان ينمو الا الى ان يصبح صيادا او جامع غذاء مستخدما ابسط الادوات الحجرية، ويدور تفكيره حول عالمه المحدود من الاشجار والمستنفعات في ضوء بعض الانظمة السحرية الغامضة. ومع ذلك فهذان الطفلان – القديم والحديث – لا يمكن التمييز بينهما. فلدى كل منهما جميع امكانيات السلالة الخاصة للكائن البشري الذي يحدث ان ينتمي هو او هي اليه. اما الراشدان اللذان سوف ينمو اليهما هذان الطفلان فهما يختلفان اختلافا عميقا. فهما مختلفان لان امكانيات الطفل الموروثة قد تحققت في احدهما بدرجة قليلة بينما تحققت في الاخر بقدر كبير..)) (١٩٦٥ ص ٣٢: منقول هذا النص من كتاب: الشخصية: لازاروس ترجمة محمد غنيم – دار الشروق ١٩٨١م).

ولقد اعتقد تشارلس دارون ان الخصائص العقلية والجسمية على حد سواء موروثة، وانها تطورت من الصراع من اجل البقاء. لقد خلقت اعمال دارون عن التطور مناخاً مناسباً بشكل واضح لوجهة النظر الوراثية كما كانت كتابات جالتون ذات تأثير بعيد في تطور وتقدم الدعوى القائلة بوراثة السلوك. ولقد اوضح العديد من الباحثين بعد ذلك بقليل ان الحيوانات كالنباتات تخضع لقوانيين مندل الوراثية ومن ضمنها الانسان. وقد ابتكر البيولوجي الانكليزي وليم باتسون William Bateson مصطلح ((علم الوراثة)) للاشارة الى هذا المجال الجديد في علم البايولوجيا. ولفهم دور الوراثة في انتاج اية سمة، يلزم توضيح مفهومين اساسيين هما ((القابلية للتغير)) Variability و ((القابلية للتوريث heritability. وقد كان منشأ الاهتمام بموضوع الوراثة هو وجود تنوع كبير في السمات الجسمية والنفسية داخل أي نوع من الانواع كالانسان مثلاً. ومن الواضح ايضا ان كل فرد منا يعيش حياة مختلفة كما يتعرض لخبرات بيئية مختلفة. ان مفهوم

((القابلية للتوريث)) هو تقدير كمي لمقدار هذا التباين الذي يمكن ان يعزى الى العوامل الوراثية.

٢- لما كانت ابنية الشخصية وعملياتها لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر وانمـــا تتطلـــب القيـــام بعمليات استدلال من النمط اللاحظ للاستجابة داخل اطار موقفي معين، فليس مما يثير الدهـــشة اذن ان يدرك الكتاب المختلفون مراحل نمو الشخصية بصور مختلفة كذلك. فمثلاً يؤكد فرويد في تحليله للنمو النفسي تطير الدوافع والانفعالات وبخاصة خلال السنوات الثلاث الاولى من الحيـــاة، بينما نجد كتاباً آخرين من اصحاب الاتجاه النمائي من امثال بياجيـــه piget وفرنـــر Werner لا يلقون اهتماما الى تطور الدوافع او الانماط الانفعالية. وهناك آخرون من امثال ايركسون Erikson يبقون على النظرة الاساسية المستمرة من التحليل النفسي لفرويد ولكنهم يـــدخلون تعـــديلات واضافات على الصورة الاجمالية العامة للمراحل الاخيرة من الحياة.

٣- ان خصائص الاشخاص الآخرين ككائنات سيكولوجية واسباب سلوكهم ليست معروفة لنا بشكل مباشر، وانما تدرك فقط من خلال الاستدلال لما نلحظه من امور. والتفاعل الاجتمـــاعي يتضمن كل العمليات السيكولوجية الاساسية التي يحاول مجال علم النفس دراستها وفهمها بما في ذلك الادراك والتعلم والذاكرة والتفكير والواقعية والانفعال. انظر:

Asch. S.E: 1952: Effects of group perssure upon the modification & distortion of Judgemnts. Social psychlogy: G.E. Swanson. J. M.

New Comb. & E. L. Harley: New York pipll.

٤- راجع:

(1) Allport. G.W. and Vernonp. E. 1933.

Studies in expressive movement. New York The Macmillan Books.

(2) Brown. R. 1965: Social psychoiogy, New York: Free press of Glencoe inc.

(3) CATTBLL R.B. 1950: Penonalry Asystematio Theortical and Factual atudy, New York: Mcgraw – Hill book Company.

٥- يقودنا هذا النوع من الدراسة (الشخصية الصانعة للتاريخ) الى وضع او ضرورة وضع تقـــنين للشخصية. وقد قامت محاولات عديدة في هذا المجال وعلى الرغم من صعوبة استخدام القياس في هذا المجال فإن هناك نجاحاً هائلاً لهذه المحاولات.

انظر:

- BECK. SJ. 1930: Personality diagnois by Means of the Rocshach Test. Amerdean Jounal of Orthopsychiatry, 1:60 – 88.

Cronbach, L. J: 1960: Essentials of psychological Testing 2nd. Ed. N. York. Harper & how Bublisher.

_ Eysenck, H.J. 1952: The Scientific study of persoality: London, Routledge and Kegan Paul Ltd.

Erikson, E.H. 1959: Growth and Crises of healthy personality: England. Peniguin books.

الفصل السادس

علم النفس والتاريخ الأدبي

- مواصفات الأدب المؤرخ للأحداث
- الأدب المؤثر والأدب المتأثر
- كيف يؤثر الحدث التاريخي على الأدب
- علم نفس الأديب كمؤرخ
- امراض الاديب واثرها في كتاباته للتاريخ
- المحتوى العقلي للأديب كمؤرخ

لو لم تحفل الاحداث التاريخية بتسجيل ما تفرزه معبرا عنها او فاعلا فيهـا من ادب، لكانت احداثا جامدة يعتريها النقصان في معرفة صورة الحقيقة الـتي كانت عليها ولجاءت عطاء ساكنا غير مشحون بعوامل التعبير عن حيويتها ودقة مفرداتها. والادب مرادف سلوكي للحدث التاريخي اوجده الحدث او اوجد هو الحدث ذاته. فكثير من احداث التاريخ كثورات وانتفاضات ضد ممارسات القهر الاجتماعي اوقد فتيلها ادب المجتمع الحي بما قدمه من احساس بمأساوية مجتمعـه وبرمه بوسائط القمع لطموحه وارادته في الحياة وبما تجلى عنه من روح الحـث الهادف الى بلورة الأنا الاجتماعية وصقلها وبما جسده من قدرة على رسم ملامح شخصية الثورة على الرديء والمختل من هياكل النظم السياسية الجائرة الجاحدة لحق مجتمعاتها في الكينونة والرفاه والتقدم[1]. والادب في كـل ذلـك ممارسـة سلوكية فردية او جمعية يتدخل في بنائها والاشراف على محتواها علـم الـنفس لوضعها في مسارها لصحيح وتوجيهها الى جادة الصواب الرامي الى الهدف منها في تحقيق ارادة الجماهير. والحدث التاريخي الذي لا يخلقه ادب ولا يرافق جزيئاته ادب لا تسجله الذاكرة الواعية للتاريخ بل سرعان ما يؤشر على انه حدث ساذج لكونه لا يستند الى عامل (التحريض) الفكري الذي يتبناه ادب هادف ولا تفرز معطياته ادبا معبرا عن روحه وحيويته. ان الحدث التاريخي اذا فهمناه في ضـوء علم النفس انه رد فعل على فعل اجتماعي خاطيء، فهمنا معه ان عوامل صناعة الحدث كائنة قبله مؤدية اليه. فعندما يطل وجود خلل في المؤسسة الاجتماعية،

تبطل معه الحاجة الى تكوين رد الفعل ويفقد التحريض فاعليته وتفقد عوامل التحريض - والادب احدها بل اهمها - حاجتها الى الظهور. ولما كان الادب فرزا سلوكياً في الفرد والمجتمع فان له مفردات تؤشر ضخامته وهيولته وبدونها لا يرتفع هذا الادب الى مستوى التحريض ولا يحقق هدفه في الحض المباشر او غير المباشر على اشاعة روح الرفض في مجتمعه لاخطاء المسار السلوكي والاستحواذ على وجدان الحشد الجماهيري بما يدفعه الى تحقيق هويته على طريقة تصحيح الخلل. وبمقدار ما يقرأه جيل من الاجيال من ادب معاصر لحدث من الاحداث، يتأتى تصور ذلك الجيل واستلهامه قوة وفاعلية ذلك الحدث. وبعد ان يستقر الحال بحدث تاريخي وينقطع عنا زمنه لا يبقى لنا منه الا ادبه فلا تتعرف الى اجزائه بالشخوص والمواضيع الا بما ينقله الينا الادب الذي صوره وعبر عنه او حرض على احداثه. فيكون الادب بذلك الوعاء الظرفي الناقل للحدث والصفحة المقروءة بوضوح في ضمير اللاحق من الاجيال عما كان من مفردات الاحداث الغابرة. ومثلما يؤثر الادب بكل صنوفه من شعر وقصة ومسرح وفن في الحدث كعوامل تحريض على صنعه، كذلك يؤثر الحدث على الادب نفسه كناتج من نتائج قيامه وصيرورة من صيرورات حتمه ومآله النهائي. فلكي يرتفع ادب مجتمع من المجتمعات الى مقام القدرة على صنع حدث تاريخي يجب ان يتمتع بالحدود الدنيا في الاقل للمواصفات الآتية:

١- **الصدق**، لا يصف حدثاً صادقاً الا ادب صادق. ولا يكتب أدباً صادقاً الا كتاب صادقون. ولا يصدق كاتب في وصف حدث الا اذا توفرت له عوامل ذاتية لا ينساها في الكتابة ولا يتجرد عن قدسيتها تحت أي مؤثر من المؤثرات. ونكاد نكون قادرين على اجمال تلك العوامل الذاتية في الكاتب والتي تجعله قادراً على الصدق في ادبه الواصف للحدث:

(أ) **الانفعال**: فالكاتب الذي لا ينفعل بالحدث لا يتفاعل معه. والانفعال هو محصل سلوكي نهائي لوعي الفرد لاهمية الحدث وحيويته وصدق تجربته. ان المشاعر التي يكنها الكاتب هي التي تظهر بمظهر الانفعال للحدث واذا كانت مشاعره مغايرة للحدث، مجانية لمبدأيته فانه اما ان يشوهه بصورة كاذبة مخادعة واما ان ينصرف عنه فيجيء الحدث خالياً من ادب يصفه ويصوره.

(ب) **الامن**: عندما يجد الكاتب حرية لقول ما يريد قوله من راي ادبي في الحدث تجيء صورة وصفه للحدث صادقة معبرة. اما في ظلال الحرمان من الامن والشعور بالرقابة وتسقط الهنات والزلات والخوف من سياط الامر بكتابة شيء وترك اخر، فان الادب بذلك لايعبر عن الحدث، قدر ما يقدم صوراً شوهاء عنه لا تخدمه ولا تبرز رؤية الادب الحقة لما حوله من جزيئبات الموضوع.

(ج) **انتقاء الحاجة**: عندما يكتب الاديب للادب فانه غيره عندما يكتب لمنفعة يرجوها او لحاجة في نفسه يقضيها. فعندما يزول هاجسه في الكتابة من انه قد يرضي احدا او يسخط احدا، فانه بذلك يقدم ادبا حقيقيا يصور ذلك الحدث تصويرا دقيقا ويصير ادبه صفحة من صفحات التاريخ السليم وتقرأ الاجيال بأمانة احداث التاريخ بأدب نقي طاهر متجرد عن المنفعة، منسلخ عن كل بغية او سؤال في النفس.

(د) **الثقافة**: تؤثر ثقافة الاديب في نوع الادب المكتوب عن حدث من احداث التاريخ. والاديب ذو الوعي المدرك لاجزاء الحدث الذي يتناوله والوجدان الثقافي الشامل المتضامن مع حاجات المجتمع في الحياة، اديب قادر ان يكون بمستوى ذلك الحدث. وبعكس ذلك فان ادبا رخيصا ساذجا بقلم غير مثقف سيعمل عمله المخرب في صورة الحدث وسيضر به كثيرا.

٢- الاستحقاق: الادب الذي يهول الاحداث الصغيرة في التاريخ ادب كاذب. والادب الذي يتفه الاحداث الكبيرة ولا يعطيها قدرها من الوصف والمواكبة ادب كاذب ايضا. بذلك نعني اهمية ان يتناول الادب ما يستحقه الحدث من اهتمام. فالضغير من الادب للصغير من الاحداث وللكبير من الادب الكبير من الاحداث. ذلك هو الاستحقاق الذي نعنيه. فعندما تكتب الدواوين وتنضد المجلدات الروائية في وصف شموخ وعظمة وال من الولاة لم يقدم لمجتمعه في وقته شيئاً من الرفاهية والحياة الكريمة، تلك الدواوين والمجلدات يجب ان تحرق او تتلف لانها ستلوث جيلا كاملا بكذب الاستحقاق. بينما الدواوين والمجلدات التي تمتليء بالحديث عن معركة من معارك امة من الامم حسمت موقفا فاصلا في حياتها واعطت تلك المعركة حجمها الحقيقي من الاستحقاق هي التي يجب ان تبقى مرجعا تقرأ فيه الاجيال عن تلك المعركة. ان انفعال شاعر بموقف اخوي مع صديق في مناسبة من مناسباته كختان ابنه او زفاف ابنته او موت حماره يجب ان لا تسجل على صفحات اعلام المجتمع ولا تلتفت اليها اشارات الدعاية. ومثل ذلك يقال عن التوافه من الاحداث وما يصاحبها من ادب رخيص لتشكل احداثها التفاتة تاريخية لانتباه جيل من الاجيال.

٣- الجودة الادبية: ان صدق الادب وصدق انفعال الاديب وتجرده واحساسه بالامن لا يكفي لان يجعل الادب ادبا تاريخيا ما لم يلازم ذلك قدرة الاديب على الاجادة. والادب الجيد هو المرآة الصادقة لوصف الحدث. فمثلما يكون الحدث كبيرا يجب ان يكون الادب المتحدث عنه كبيرا ايضا وبمستواه ايضا. عندما مات سعد زغلول، مات قائد من قادة الفكر السياسي العربي في مصر، وفي تلك المناسبة التي لا تعدو كونها حدثا تاريخيا حاسما في حياة مصر، انبرى شاعر لهذا الحدث فقال:

تبكـــي علـــى ســـعدنا نوحـــا نوادبـــه

وكـــل مـــن مـــات تبكيـــه نواديـــه

في حين قال شاعر اخر في تلك المناسبة:

قالوا: دهـــت مـــصر دهيـــاء فقلـــت لهـــم:

هـــل غـــيض النيـــل ام هـــل زلـــزل الهـــرم

قـــالوا: اجـــل وادهـــى، قلـــت: ويحكـــم

اذن لقـــد مـــات ســـعد وانطـــوى العلـــم

ومن مقارنة هذين النصين نرى تفاهة النص الاول وعمق واصالة الثاني. فالاول يقرر ان سعد زغلول تبكيه النوادب مثلما تبكي على أي ميت (هكذا!). بينما استطاع النص الثاني ان يقرن موت سعد زغلول بصورة اجل واعظم مـــن غيض النيل او زلزلة الهرم. فأعطى النص الاول تنفيها للحدث امام القاريء بينما خلق النص الثاني صدق الصورة عن اهمية سعد بما قدمه من ادب جيد سليم.

لقد سبق ان قررنا ان اركان الحدث هي الشخوص والزمن والموضوع. وهنا نرى ضرورة أن لا يبتعد الادب عن كونه موضوعا. وينشطر الحديث عـــن الموضوع في الحدث عندما يكون أدبا الى شطرين:: الادب كمؤشر في صـــناعة الحدث والادب كتأثر بحدث نتائج عنه. كموضوع ناتج عن الحـــدث. ونكـــاد نكون قادرين على تمييز الادب الصانع للحدث بصفات يختلف فيها عن الموضوع الناتج كأدب من أحد الحدثين بالمؤشرين الآتين:

١- الابداع:كل فكر مبدع لا يمكن أن يكون الافكرا جديدا ليسمى بعد ذلك فكرا مبدعا. والابداع في الادب يعني وجود عقلية ووجدان فردي واجتماعي (جمعي) قادرين على الانتصار على عوامل قهره في البيئة الخاطئة وقادرين على الاتيان بالجديد الرافض للركود والخالق لعناصر الجدة والحداثة الى المصاف الذي يخلق فيه الادب ثورة فكرية. وثورات التاريخ التي تهيئ لها أقلام الكتاب مناخا فكريا ناجحا بما تقدمه من أدب ثائر محرك معطاء هي الثورات الخالدة وهي الاحداث التي تعيش في ضمير الزمن بحكم ما أصابهم من محتوى أثراه وجود عنصر الابداع في أدب الحدث أو تلك الثورة التاريخية. أما الانسياب والمجاورة الواهنة أمام الردع والقهر الاجتماعي للفكر فانه محجم لروح الاديب وموقف له عن ممارسة حقة في تقديم الفكرة المبدعة الجديدة.

٢-التقمص: ان الادب الذي يستطيع ان يتقمص روح الجمهور هو الادب الذي يتمكن ان يكون صانعا للحدث. والتقمص لا ينقاد كآلية في وجدان الاديب الى محاكاة الشائع والرضوخ لواقع الحال. بل هو الوجه الظاهر لآلية الاستنباط الادبي للاوعي المجتمع بكل كوامن مشاعره وهواجسه. والتقمص بهذا الشكل يبتعد بالادب كمادة وبالاديب كمعبر، عن التقريرية والسطحية والمماحكة الظاهرية للاوضاع القائمة ويذهب الى الخزين المشاعر فيجيء بذلك نقيا معايشا للحقيقة التي ينشدها الجمهور في لوحة اسقاط لمشاعره ودوافعة. ويختلف في هذه الآلية الادب الصانع للتاريخ عن الادب الناتج في كونه الاول موقدا حسيا لدفين غير محسوس بينما يخاطب الثاني الظواهر المباشره بطريقة ساذجة سرعان ما ينفر منها الناس لانها لا تمثلهم في الاماني.

أما كيف يوثر الحدث على الادب كمفرزة من مفرزاته فيمكن تصور ذلك على نحو مما يأتي[٢]:

١- **الخوف**: حرية الأديب أمانة يعلقها سادة وقادة للمجتمع في عنقه، ومع هذه الحرية تولد المسؤولية. وأمام المسؤولية تتحدد مسيرة الأدب الناتج عن الأحداث. ولكي لا تكون المسؤولية قيدا جاهزا لوضعه في معاصم الاديب يجب أن تكـــون مسؤولية ذاتية نابعة من ايمانه بها. والاديب لايحترم المسؤولية الا اذا شعرانها ثمــن الحرية المتاحة.وهو لا يحب الحرية التي لا تترك لادبه أن يكون معبرا عما يحـــسه هو. فاذا كان القائمون على الادب كوجه من وجوه المفرزات السلوكية لابنـــاء المجتمع من النوع المهيمن على الادب بالكثير من التحديد والمعاصـــرة وترســـم الاثارة وتعيين الاتجاه، فان ذلك مدعاة أساسية لظهور عامل الخوف والخوف في الادب مرض يصيبه بكثير من الاعراض التي يقـــف في مقدمتـــها: الكـــذب والسطحية والرداءه. وبالتالي فالادب لا يكون الا وجها من وجوه التعبير عـــن الحدث. وأمام الحرية المتاحة للادب تنشأ مسؤولية الادب نفسه عـــن كيفيـــة ممارسة هذه الحرية. وأخطر مزلق يمكن أن ينحدر اليه الادب في حرية ممنوحة له هو مزلق الفوضى. والخوف الذي يمارس على الادب كعنصر ضـــغط ســـرعان مايصير جزءا من وجدان الاديب نفسه فيصير هو الرقيب علـــى الاحـــداث ولا يكتب الا ما يجسد حرصه هولا حرص الرقيب على سلامة النقـــل للحـــدث وتصويره الصورة التي يستحق.

٢- **الموضوعية**: الاحداث التاريخية التي تستند الى موضوع هي الاحداث الحية وهي التي تفرز أدبا بموضوع. أن اشد ما يعانيه الادب هو عندما يجيء فقيرا بـــلا موضوع. والادب الذي تفرزه مرحلة تاريخية مظلمة جاهلة تسودها الظلامـــات

وتردي الثقافة أدب ساذج سرعان ما يسقط ولا يخلد في ذهن الاجيال.

٣- المحدودية في الحدث: تؤثر حدودية الاحداث واهتماماتها في نوع الادب كمفرزة من مفرزاتها. والحدث الكبير ينتج ادبا كبيرا ويحتضن ويرعى ادباء كباراً. وكلما اقترب الحدث التاريخي من قدرته على شمول الاغراض الانسانية والاهداف البناءة الخادمة لمسيرة الانسان، تزامن معه وتنتج عنه ادب رفيع. ان الثورات التي تضع حدا فاصلاً لمسيرة مجتمع وتحوله الى مجتمع جديد تحول معها الادب الى مقام جديد. وبعكس ذلك ما يحدث مع الانتفاضات المحلية او الحركات الفكرية الاقليمية او المحلية الصغيرة فإنها لا تحدث ادبا كبيرا.

ويتضح لنا بعد ان تبينا اثر الادب في الحدث واثر الحدث في الادب هو تاريخ للحدث وان الاديب مؤرخ بالضمن، وهذا ما يجعلنا مضطرين الى دراسة نفس الاديب الذي صار مؤرخا نتبين اثر الاديب النصي في عمله كمؤرخ، لاننا اذا تعرفنا على نفسية الاديب المؤرخ بالمنظور العقلي والوجداني، نكون قد استطعنا ان نتبين في ذلك حقيقة الحدث نفسه. فمن هو الاديب كمؤرخ في المنظور النفسي؟. ان الاديب يؤرخ نظريته الخاصة في الحدث قبل ان يؤرخ الحدث ذاته كما يفعل ذلك. مؤرخ غير أديب[٣]. فهو بذلك اديب كاتب في التاريخ وليس مؤرخا كاتبا في الادب. ولكي يكون كذلك فإنه يحتاج في ذلك الى ما ياتي:

١- لكي يكتب اديب نصا مصورا لحدث لابد من ان يجد ميلا نفسيا عن المألوف السوي، منحرفا عنه، وغالبا ما يمتاز وعلى الخصوص في مدة كتابة النص بشيء من الاكتئاب المقرون بالعزلة والانفراد (الاستبطان الاحادي الجانب المتجه

الى الذات في تصوير الحدث).

٢- يمر الاديب في تاريخه للحدث بنص ناجح، باحساس معين من العدوانية التي كثيرا ما يحاول ان يوظفها بشكلها الموجب. واذا كانت مرحلة الاكتئاب هي الغالبة على الاديب اثناء كتابة النص فإنه يمارس هذا العدوان الادبي (النص) بطريقة عقاب الذات واشعاره بالذنب تجاه حدث معين في وسط معين فيصير بذلك معبراً عن نفسه في الحدث بصيغة من صيغ العزاء والترحم على الحدث نفسه من قصورية كامنة في ذاته كفرد وتجيء بذلك نصوصه صورة معبرة عن اخفاق الفرد في صناعة الحدث (الذات المعاقبة). اما اذا كانت الميول التي تعتري الاديب في مدة الكتابة ميولا فصامية – وهذا شيء مسجل لبعض الكتاب – فيقوم بعملية اسقاط عدواني على الحدث المتمثل بالوسط والظروف والمجتمع ويعتبر ان الضيق والعتمة التي يمر بها النص الادبي مسؤولية الحدث من اضطهاد للفكر وغياب للحرية ومصادرة للكلمة. وهنا يبرز النزوع الفصامي في النص الأدبي اثرين على الحدث التاريخي:

(أ) تزكية الحدث نفسه من التهمة الموجهة اليه من اديب لم يتخلص من نزوعه المسقط للعدوانية على الحدث بآلية الإنكار التي يمتلكها وآلية الإزاحة التي يستعين بها فيجيء النص فصامي النزعى فاضحاً للأديب ومبرئا للحدث من روح العتمة والاضطهاد والعدوانية.

(ب) اكتساب الحدث صورة مشوهة وتسجيله تاريخيا في سجلات الأحداث المضطهدة المعيقة لمسيرة الإنسان في الحياة بحكم ما قدمته الآداب. ففصامية النزوع من صورة مشوهة للحدث. ويحدث هذا عندما يتعذر على الباحثين اللاحقين

الفصل بين ما يصوره أدب فصامي لحدث وبين ما يكون عليه الحدث حقيقة.

٣- تمثل شخصية الاديب في الغالب شخصية قلقة، غير مستقرة، خائفة في احسن ظروف استقرارها، تميل الى استخدام المزيد من آليات الـدفاع اللاشـعورية في التغطية على موقف او للخلاص من موقف. وهذا القلق الادبي واهن في تسجيل احداث تاريخية تسجيلا صادقا. وفي نوبات القلق لا يكون الادب ممثلا للتـاريخ الذي تقتضي قراءة ظروفه واحداثه هدوءاً واستقراراً.

٤- يتبلور الانسحاب الفصامي من المواقف كثيرا في نصوص الادبـاء الـذين يكتبون ادبهم في وقت معاناتهم لهذا الذهان الذي يتزامن مـع الاحـداث الـتي يعاصرونها. فالنص المكتوب بوجدان فصامي نص متطير يفتقر الى روح الالفة مع الوسط وبالتالي مع الحدث في الوسط، ويلهث وراء العواطف التي لم تنضج فيـه بعد ولم يفسح المجال لاستلامها من أحداث معاصرة له. وهنا يعوض الاديب في نوبة الذهان عن هذه الفجوة الواضحة في التواصل مع الحدث التاريخي باشـاعة المزيد من عناصر المكابرة والغطرسة في روح النص واستصغار اجـزاء الوسـط (الاثر التشويهي لآلية العظمة في الأحداث التاريخية).

ان المتتبع لمسيرة أديب يؤرخ لحدث يستطيع ان يستوضح ان عملية كتابة الفكرة الأدبية الواصفة للحدث واجزائه تمثل مسلسلاً فسلجيا ونفسيا معقـدا. فعملية كتابة من هذا النوع تبدأ بفكرة او بمجموعة من الجزيئات الصغيرة المكونة لفكرة في مخيلة الاديب عن حدث تاريخي معاصر له. وعلى الرغم من ان عملية الايض الحقيقية لنشوء الفكرة في المخ لم تكتشف بعد الا ان الابحاث المستمرة في هذا الجانب استطاعت ان تحيط كثيرا من جوانب هذه العملية بشيء من الايضاح

والشرح. هناك عوامل عدة تسهم في تحديد معالم الفكرة الاولية لنص في ذهن كاتب يكتب تاريخا لحدث. فهناك عامل الانتقاء: فمن اجزاء الحدث ينتقي الاديب الاجزاء المجسدة لهواجسه، المشبعة لعطشه وجوعه الروحي اكثر من المؤرخ الذي تهمه المسيرة الحديثة العامة بالارقام والاعداد والشخوص. فهو بذلك منتق لما يخدم الصور الادبية والرؤى الفنية اكثر من انتقائه للاحصاء الموسوم بالارقام والاعداد.

وعامل آخر من هذه العوامل هو عامل الابتكار: ان مخيلة الاديب مختلفة اساسا عن مخيلة المؤرخين غير الادباء فهو لا يسجل ما يرى فقط، انما يتكر مستقبلاً من حاضر ويقرن حاضراً بماض وبذلك يصير الادب التاريخي ادبا مقارنا بالنتيجة فهو يقرن حاضر الحدث الذي يعاصره بسلبيات وايجابيات الماضي ويحاول ان يتكهن برؤاه الادبية صورة المستقبل الناتجة عن هذا الحدث.

العامل الاخر الفاعل في الاديب الذي يؤرخ لحدث عامل التاثر، وهنا لا نستطيع مهما حاولنا ان نجرد الاديب المؤرخ من سمة تاثره بالحدث لانه انسان يحتاج الى يومه البايولوجي كانسان. ويجيء كحاصل للتاثر مع الابتكار عامل آخر هو عامل الاقتران او المزاوجة. ففي البواكير الاولى للفكرة في ذهن الاديب تزدحم قدرته على انتقاء صورة معينة وقد يكون هذا الانتقاء اصطفاء من الحدث او من الموروث الفكري السابق عليه (بصيغة المقارنة) وقد يكون من مجموع افكاره الخاصة وتصوراته هو. كذلك يشترك في العملية قدر معين من ابداع الاديب في ابتكار فكرة لم يصل اليها احد سابق عليها وبذلك قد يهول الاديب من تاريخ حدث معين بحكم ما لحقه في المخيلة من تواصل لافكار مستحدثة ثم تدخل قدرة الاديب على احداث عنصر المزاوجة بين فكرته وفكرة من سبقه

او بين ما يطرحه وبين ما يستطيع ان يؤثر فيه في الحدث الذي يزامنه. ان العوامل الخارجية التي تؤثر في كتابة النصوص لدى الاديب الذي يؤرخ لحدث تـــاريخي عديدة يجيء في مقدمتها:

(١) **العرف الاجتماعي السائد**: فالاحداث التاريخية التي تمثل مــشاعر النـــاس بشرائحها العامة مؤثر مستمر على نزوع الاديب الى رؤية الحدث رؤية اخرى قد يختلف فيها عمايريده الناس.

(٢) **البيئة الثقافية**: فقد يرى الاديب في الحدث الذي يعيشه غــير مــا يــراه الاخرون ويتدخل في ذلك ثقافة القطيع الاجتماعي التي قد تختلف عن ثقافته كما واتجاها فيعرج والحالة هذه الى حالة من الانخذال والاستسلام الى مجاراة عواطف غيره او ينعزل بأفكاره ويصير بها قطبا سالبا مغايرا للكم الاجتماعي.

(٣) **السلوك الاجتماعي العام** :والسلوك الفردي وشخصية الاديـــب ومـــدى اقترانهما او افتراقهما في كيفية التعامل مع الحدث. (٤) من هذا كله توصـــل الى حقيقة عامة نقرر فيها ان الاديب لكي يؤرخ لحدث في التاريخ يجب ان يدرس – كنموذج شخصي من نماذج دراسة الحدث نفسه – على محورين من قبلنا: المحور النفسي (الوجداني)، والمحور العقلي. فالاديب المؤرخ او الذي توظـــف اعمالـــه كجزء من تاريخ مقروء عن احداث يمكن ان يكون عرضة لواحد من الاعتلالات التي تجعله كاتباً لنصوص يؤثر بها تأثيراً سالباً او موجباً على الحـــدث التـــاريخي. واهم هذه الاعتلالات:

(١) **العصاب**: ان الاديب فرد يمر بما يمر به غيره من الناس (او هكذا يجـــوز). فهو والحالة هذه يمكن ان يكون عرضة لنشوء العصاب تبعا لظروفـــه الاولى في بيئته واسرته ومقدار استلامه للامان والاطمئنان الذي ونسبة الحرمان والاضطهاد

قد يتعرض له في بواكير عمره. والاديب العصابي عرضة للاضطهاد، حساس لابسط حالات الاثارة. وقد يرى بعصابه هذا اشباحا واهمة لحقائق بسيطة عادية، وبين ان يكون الاديب العصابي مصورا لرؤيته في الحدث او مصورا لحقيقة الحدث تكمن مأساة ادبه كناقل للاجيال عن ذلك الحدث. واخطر ما يخشى في الاحداث على ادب الاديب العصابي هو عامل الرمزية في المفردات. فالاديب العصابي قد يرى في اجزاء الحدث رمزا لمأساته الذاتيه ويرى في الحدث رمزا لعصابة الاول، ومن هنا فانه سيخفق في قراءة الحدث من الخارج وبوضوح لان غلبة الرمزية في الاحداث وهيمنتها على مرموزات الاضطهاد والتطير الاولي في وجدانه متغلبة على الاستقرار في القراءة والهدوء في الوصف.

٢- النرجسية: ان الاديب النرجسي قد لا يرى في الحدث الذي يصفه الا ما يمثل ذاته والا ما يتبنى نزوعه وبالتالي فكل حدث يغاير في طبيعته ومفرداته واتجاهاته نزوعه النرجسي وحاجاته الخاصة حدث بليد ساذج قد لا يهمله حسب انما يتعداه الى مرحلة اتهامه بالعدوانية على حقوقه وهضمه لحريته في الحياة. ولكي نوظف نصوص اديب في حدث بصورة حقيقية، علينا ان نحاكم الاعتلال النرجسي في الادب نفسه واذا ما استخلصنا حقيقة اعتلاله هذا فإننا نكون بذلك غير واثقين من قدرته على تصوير الحدث لان القدرة النرجسية قدرة منسجيه في الاديب الى الداخل، مهتمة باشباع ذاته العطشى الى حاجاتها لا الى حاجة الناس والوسط لذلك الحدث.

٣- السادية: اذا كان الاديب الذي يوظف ادبه لكتابة تاريخ لحدث ما ساديا في نزوعه فسوف لا يلتفت الا الى الاحداث التي تشبع فيه نزوعه السادي. فقد يرى في لمحات الاحداث الرومانسية وشيوع الاشراق الروحي والتسامح الحضاري

لشخوص احداث معينة اخفاقات تاريخية يجب ان تهان وترجم بالجبن والتخاذل، فهو يصور الانتقام والحروب والدمار والاجرام بملاحم تحكي صور البطولة والفداء والقدرة الانسانية. ويرى في اللقطات الانسانية والانسيابية الوجدانية لزعماء التاريخ وتسامح الحركات الفكرية مع اضدادها وانتشار او امكانية انتشار التقاطع الفكري بوقفية ونجاح، يرى في كل ذلك خذلانا وخدرا وارتخاء مفاصل في الاحداث. وليس ذلك لان لحدث هكذا او لان هذه الاشراقات لا تستطيع ان تخلق احداثا حضارية، انما ذلك لان السادية الكامنة فيه كاعتلال نفسي لا تسمح له برؤية كل الاحداث وبالتالي تحجبه الا عن رؤية همومه هو لا هموم الحدث الحقيقية.

٤- **الماسوشية:** قد يكون الاديب ماسوشيا، يتلذذ بأذاه وهو بذلك يقدم نصوصا ادبية لحدث وفق ما يصوره اعتلاله هذا. فالاحداث التي قد تؤذي الضمير الاجتماعي وظهور الاوضاع التي قد تمارس الاضطهاد على الشرائح الاجتماعية صور حلوة لديه لانها تحقق فيه لذة الالم الذي لا يتحقق لديه الا بعصا المعاقب المؤذي فيرى على وفق هذا الاعتلال عناصر الاضطهاد والعنف التي تمارسها زعامات التاريخ على ابناء مجتمعاتها وسائل لذة لانها اشبعت فيه حاجته الى اخضاع من الاحداث في كتب المؤرخين ذكريات العنف والاضطراب ومشاهد الدماء والسجون، نجد ان هذا الاديب يصف تلك الذكريات بانها كانت حاجات ضروريه وقد كانت كذلك بالنسبة له لا للناس)، فيصورها بصور ادبية حلوة مستساغة ويسبغ عليها من رؤاه وخيالاته ما يجعلها مقبولة في اذهان الاجيال على الرغم من مرارتها والمها(٥). هذا ما نراه من اعتلالات يمكن ان يقع الاديب وهو يؤرخ بأدبه للاحداث ضحية لها على المحور النفسي. ونناقش الان ما يمكن ان يصوره المحتوى العقلي للاديب من احداث التاريخ. اننا لا يمكن ان نهمل

المحتوى الفكري (العقلية، الثقافة، الفكرة) لدى الاديب لان اديبا بلا ارتكاز عقلي صور وجدانية مهشمة محتاجة الى الناسج الاول المجتمع لوشائج تداعياته الفكرية (العقل). وعندما نناقش في الاديب محتواه الثقافي وصيرورته العقلية، انما نناقش اولا محتواه (الاعتقادي). والمعتقد وان كان يحمل بالنتيجة تصورا وجدانيا متمثلا بالمشاعر الا انه عمل عقلي قبل كل شيء. وقراءتنا للمعتقد الادبي في الاديب يجب ان تشمل نوعين من الاعتقاد: الاعتقاد الميثولوجي والاعتقاد السياسي الذي سرعان ما يبرز في ادب كاحدى صيغه التاريخية.

يبدو ان التوجهات الفلسفية والاشتقاقات والتنظيرات كانت تبحث في الانسان عن انتمائه. وحتى لو كان من نصيب هذه المسارب والتنظيرات ان تقرر لا انتماء الانسان، فان ذلك يعد نصيبا وافرا من العملية قد لا تطمح تلك التنظيرات الى ما فوقه في الحصول عليه. وامام هذا البحث الانساني المرهق عن هوية في الانتماء او اللا انتماء، وجد ان مسألة الاعتقاد امر ملازم لظهور العقل. وسواء ما ذهب اليه الماديون بسبق المادة على الفكر او ما ذهب اليه المثاليون بسبق الفكر على المادة، يظل الاعتقاد ناتجا لصيقا ومعززا لا خلاص من الاقرار به. ولا ضير ان قيل انه يجوز وجود انساني بدون اعتقاد. لا ضير من ذلك فاللا اعتقاد بشيء هو اعتقاد ايضا. ان اهم مكامن القلق في البحث الانساني المصيري عن تعيين موقعه تجاهها وكيفية ارتباطه هي الاله، الدين، الوطن والعرق.

تقول الاعراف التي جاءت بها كتب السماء ان الكائن البشري مستحدث وانه ناتج لارادة الكينونة وذو تاريخ على الارض. وتقول علوم الفلك ان الازل الاثيري له اشتقاق مادي افرز المادة الحية، ولا ضير في ان تكون تلك المادة متقولبة منذ بدايتها الى صنوف من الاحياء اساسا. وتذهب مدارس نظرية

التطور التي شكلت نواة للنكر المادي الجدلي الى سبق المادة والى ان نشوء الفكر مستحدث وان وجودنا مجمل صراع بين قوى بدأت بقوتين والخيار كان ارتقاء لمجمل دينامي ما يلبث ان يبحث عن نقيض ليدخل في صراع معه. وتستقر مدرسة التحليل النفسي الى استلام الانسان كما هو. تأخذ الظاهرة النفسية وتعتبرها مسؤولية عن نشوء ظاهرة نفسية اخرى. وبذلك تجعل ظهور المعتقد حاجات مطلوبة لظواهر نفسية سابقة عليها. ان كل هذه المدارس جديرة بالمناقشة مثل مناقشة السلوك الانساني في الاديب كمحصلة في كل هذه التنظيرات.

من هنا نرى ان الاديب، ان لم يكن يملك ثقافة ميثولوجية كافية عن انتماء مجتمعه لاحداثه، فانه غير قادر على تصوير الاحداث التي تبرز على مسرح الحياة وفيها الكثير من التصويرية لميثولوجيا الاعتقاد. ان الايمان المشرق بالاله الواحد القهار الذي قدمه الاسلام مكملا لما قبله من فكر ديني على يد رسول الله منطلقا من الجزيرة العربية هو الذي يجب ان يكون ضمن ثقافة الاديب يضيفها الى قراءته ومحتوياته العقلية عن الميثولوجيا السابقة لظهور الدين ليقدم بعدها مرحلة عقلانية من ادبه في تصوير الاحداث.

عرفنا الان ان الانسان انتمائي لوسطه، وحتى في حالة الاقرار بامكان ظهور نزعة اللا انتماء فيه فانما ذلك انتماء لفكرة الانسلاخ من الوسط والعيش في ظلال هذه الفكرة التي تشكل انتماء اليها في حدود ضميره. وبذلك يتلازم المعتقد بكل اشكاله مع العقل. ولما كان ظهور فكرة الاله تعبيرا انتمائيا في الانسان يتوقى به عنصر الخوف في ذاته من المحيط ويرضي به انفعال القلق ضد حالة اللا انتماء، فلقد وجد ان عثور الانسان على التوحد مع الاله المطلق

السرمدي مخفف لحدة التوتر وخافض للعدوان. فحين لا يوجد امام هذا الكائن حائط اسقاطي يستقبل حاجاته وضعفه، يكون مضطرا نتيجة للاحبـــاط الـــذي يلاقيه من قبل الظواهر القاهرة الى ارتجاع هذا العدوان الى ذاته وهذا ما يؤدي الى ظهور الاكتئاب من جديد.

يمثل المهد الذي يحتوي الرضيع محطة الاسترخاء الاولى في حجر ام مـــا تزال تمثل جزءا متصلا من ((انا)) الطفل الذي ما يزال هو الاخر عـــاجزا عـــن تصور اية حالة انفصال عن الجزء المكمل لاناه وهو ثدي الام بل الام كلها. ان الانا في الطفل في مهده الاول هو جزء من ((انا امه)). واية عملية عـــزل تمثـــل عملية ابعاد لعنصر التواصل الغريزي بين الطفل وامه. ومع التقدم في العمر تبـــدأ ((أنا)) الطفل بالتصالب والاستقلالية شيئاً فشيئا مع الاستمرار في تكوين الخبرة عن المكان الاول بذكريات ارتباط يترع اليها ويحتفظ بدفئها ورعايتها من حـــين الى اخر.

وعند تجاوز الطفل مرحلة الرضاعة، تتسع دائرة سكناه النفسية وتـــشمل سرير الام وعالمها القريب، وتمثل هذه المرحلة الممتدة من اليـــوم الاول للـــولادة وحتى نهاية السنين الثلاث او الاربع اللاحقة مرحلة التثبيت الطفولي لمرحلة العشق الاولي للمهد وحجر الام والتي يمكن ان يعاني الطفل حالة نكوص اليها في ايـــة مرحلة لاحقة. وتعمل السنوات اللاحقة من عمره عملين في ان واحد: الاول هو توسيع دائرة استيطانه بحيث تشمل الغرفة ثم البيت ثم الحارة التي يقع فيها بيتـــه. والثاني زيادة حشد الذكريات الاولى نحو هذه الممتلكات الاولى التي قد لا تكون مفهومة عنده ولكنها خزين لا شعوري يقلل وجودها امامه او تواجده فيها من التوتر كما يزيد افتراقه عنها قلق الازاحة المفضي الى الخوف من فقدان مـــواطن

الامان الاولى مما يؤدي الى عودته مجددا نحوها والاطمئنان الى انسيابية ذكرياته الطفلية الاولى. ولهذا يمثل حجر الام ثم سريرها وغرفتها ثم البيت ثم الشارع ثم الحارة التي فيها الشارع ثم المدرسة صورة مصغرة لما يمكن ان نسميه ((الوطن الاول)) في مخيلته. فلا عجب ان سئل طفل عن وطنه ان يذكر بيته او ربما غرفة امه او حتى حجرها. ومن هنا نستنتج ان الوطن هو الصورة العقلانية المكبرة في مخيلة الفرد عن الوطن الاول في اطاره الصغير المدفون في لا شعوره. ويمثل الوطن مثير اطمئنان دائم في ذهن الفرد. فكل عملية ابعاد او تهديد للكائن في اشباع حاجته الاستقرارية في عشه الوثير تمثل عملية اثارة لعنصر العدوان والاستعداء فيه بغية ازالة المؤثر وخفض التوتر الناتج من فقدان عنصر الاطمئنان. ان الدفاع عن الوطن هو محاولة خفض التوتر الداخلي في الفرد، الناتج عن موقف احباط خلقته محاولة اقتطاع هذه الحاجة الحياتية في البيئة. ان هذه القراءة العقلية للوطنية يجب ان تكون متوفرة عند الاديب المؤرخ لاحداث تهم وطنه ووطن مجتمعه، وعندما يفتقر الاديب الى التثقيف النفسي للوطنية فيه بهذا المنظور فانه سيكون معتلا في تصوير الاحداث التاريخية الوطنية الترعة ويقرأها قراءة غير موفقة.

وجدنا في ما سبق ان الكائن انما يمثل باسقاطه الحب على الوسط حوله، التعبير عن دافع فطري داخلي له جوانب ايجابية منها المحافظة على الذات واشباع حاجة حب الفرد لنفسه. ولقد وجد بعض الباحثين ان الحب مظهر لتروع يمكن اسقاطه على الذات (النرجسية) او على المحيط (الوطنية) تبعا لحاجة الفرد ولحالته النفسية وطبيعة المثير. وعندما يبدي الفرد الحب تجاه الوسط الذي يعيش فيه لا يسقطه بشكل متكامل الا اذا تواجدت في هذا الوسط مفردات اجتماعية ونفسية تطابق المفردات المرسومة في ذهنه والتي تشكل الهيئة النهائية لصورة الحب التي يريدها. ولكل فرد صورة معينة عن التشريح النهائي لهيكل حب خاص. ولكن

هناك عوامل عديدة تكاد تشكل القاسم المشترك لصورة الحب العامة للافراد في كل بقاع العالم. هذه العوامل تشمل بين ما تشمل اللغة والثقافة والمناخ والامن والعادات المكتسبة كالكرم والتعاون.

وعندما يجد الفرد هذه المفردات متوفرة في الوسط الذي يعيش فيه، سرعان ما يعتبر ذلك الوسط منفذا لحاجاته الذاتية بمفردات اللغة والثقافة والامن والمناخ والعادة.

من هذا يتبين ان الوسط يشكل عنصرا دائما للاطمئنان واطفاء القلق في دواخل الفرد. والوسط الذي نعنيه بالحديث هذا لا يعدو كونه ((الجماعة)) التي ينتمي اليها الفرد. ان كل فرد منا يحب جماعته ولكن اية جماعة؟ الجماعة التي تتمثل فيها حاجاتنا حالما تخفق هذه الجماعه في تحقيق المطالب الذاتية للفرد، يشعر الفرد بحالة انسحابية منها ويشعر بالثورة الداخلية والنقمة على الوسط الذي لم يعد يلبي امانيه وبذلك يبرز العدوان كمظهر بديل لحالة الحب، ويظهر في الفرد نزوع الاغتراب، الاغتراب عن الوسط باتجاه الذات. ولا ننسى ان الاغتراب هو حالة من حالات الاكتئاب التي يرافقها اسقاط العدوان على الذات والشعور بالذنب، ويعتبر الفرد فيها نفسه مسؤولا عن هذه الخيبة التي ساهم الوسط في خلقها اصلا. ان الاديب كمؤرخ يستطيع ان يتفهم العرقية على هذا الاساس وينتمي بها الى قومه على هذا الاساس فيزول بذلك كل محتوى اغترابي في مخيلته عن مجتمعه واحداثه. وعندما تتحقق هذه القدرة العقلية من التصور في الاديب فانه سينتمي الى الحدث التاريخي الذي اوجدته دواعي الحفاظ على العرق وقومية المجتمع الملبية لحاجات ابنائها والمتواصلة مع الجسد الانساني الكبير بتاريخ مشرق وضاء. وبهذين المحورين النفسي والعقلي يكون الاديب مؤرخا لاحداث المجتمع

ويكتب ادبا يدخل ضمن احصاء الاحداث كمفردة مفيدة. بقي ان نعرف ما هو مطلوب من الاديب المؤرخ في محتواه السياسي لكي يجيء ادبه ناضجا في المعيار السياسي المصور للحدث. اذا كان العمل السياسي سلوكا وهو كذلك فهو اذن موضوع خاضع للدراسة بالقياس. وعلم النفس هو دراسة السلوك، يعني ذلك ان علم النفس دراسة لكل سلوك بما فيه السياسة. وتقريرنا ان السياسة سلوك لا يخرجها عن ذلك كونها فنا او علما طالما ان السلوك يمكن ان يمارس بطريقة فنية او بطريقة علمية. وعندما يقرر علماء السياسة انها فن تحقيق الممكن، انما يقررون ثلاثة مواضيع في آن. يقررون اولا ان هناك موضوعا ممكنا بالشكل والمحتوى ويقررون ثانيا ان هذا الموضوع يمكن تحقيقه وابرازه كممارسة سلوكية تنتقل من عالم المخيلة الى عالم التطبيق. ويقررون ثالثا ان هذا الموضوع الممكن يتحقق بالتفنن. والتفنن تعبير يحمل دينامية التعبير أكثر من كلمة((الفن)) بالمصطلح الاستدلالي الوصفي والتحريضي للكلمة. وكون التفنن يحمل ديناميـة لا يعني قدرته على حمل صيغة من صيغ الالتواء او الالتفاف الا بما تفيده هاتان الكلمتان من معاني القدرة على التحاور واستخدام اللا مباشرة في احتواء الموضوع ذاته.

من وجود هذه المواضيع في كلمة سياسة نستنتج كبر هذه الكلمة سولكيا وخطورتها نفسيا على صعيد الفهم والاختبار. وتكاد تلتقي كل مجالات الحياة لتكون بالتالي مجملاً سلوكياً سياسي الصيغة. فالتجارة تحتاج الى سياسة تختص بتقنين برامجها وخططها ووضع قياسات محددة لانجاحها واخراجها من صيغ التردي والبوار. والزراعة تحتاج سياسة لهندسة مضامينها وتطبيق الممكن من مفيدها وتجنب الفاشل من ممارستها في خدمة البنية الاجتماعية. ومثل ذلك يقال عن الصناعة والثقافة والفكر بكل مناحيه كعمل عقلي يحتاج الى تصور سياسي حتى في ادق مراحله العلمية المجردة عن عواطف التناغم مع مشاعر الجمهور

وطموحه. والسياسة كفن تلتقي مع حقيقة كونها علما في المحتـوى. فالـشكل والاطار لبرنامج سياسي معين هو اطار فني، اما محتوى البرنامج فانه لا يتخلى عن كونه عملا عقليا صرفا. ولو حاولنا مناقشة كل احداث التاريخ لوجـدنا انهـا احداث سياسية في المحتوى. فهي في الاساس عمل عقلي يحتاج فسلجة فردية او اجتماعية سليمة قادرة على رسم ابعاد هذا العمل العقلي ولكننا نجدها تختلف من حدث الى اخر في التطبيق الشكلي ليس لشيء الا لان الشكل النهائي شكل فني تحدده مرحله ووسائل تخريجه. فهل يمكن ان يهمل علم النفس مناقشة التـاريخ السياسي او روح السياسة في السلوك التاريخي في الادب القاريء للاحداث؟ ان النقاش الذي يدور في علم النفس في دراسة الادب السياسي كاعتقـاد عقلـي يدعونا الى القول بصحة تداخل علم النفس مع الـسياسة كاحـداث او مـع الاحداث كسياسة بدءا بكون الاثنين صورتين متلازمتين لمجرى سلوكي هو عين ما وجد لاجله علم النفس ذاته.

ان علم النفس يرى في السياسة ما يشمل:

١- العمل العقلي: لا يمكن العمل السياسي ان يؤدي دورا اذا تخلى عن العقل. فمثلما تخضع مجالات العمل الاخرى، العلمية والادبية والفنيـة لقـدرة العقـل وهيمنته، يخضع العمل السياسي لتلك القدرة. وكل ركائز العمل العقلي مطلوبة في العمل السياسي. فالذاكرة الحية الفطنة للتاريخ، والتفكير العالي الشامل الخالق للمجمل الادراكي والقدرة على تمثل الحاجة الحياتية بما تحتاجه مـن درجـات الارتفاع والانخفاض الفكري المتعامل معها والذكاء العالي المعامل (L.Q) والقدرة على التسامي بالفكرة المطروحة الى مستويات الاستنباط والتجريد عند الحاجـة

والسيولة الفكرية للتعامل مع الماضي والحاضر، كل تلك الركائز هي ركائز العمل العقلي مطلوبة بالضرورة للعمل السياسي ليكون بها كذلك.

٢- اللاوعي السليم: ان السياسي انسان مستبطن الافكار، يمتد بأناه ووعيه الى الاحداث بما يستطيع ان يستلهم حيويتها ويتشوف اخطائها فيجنب دواخله ودواخل مجتمعه مطب السقوط في عتمتها ويرتفع بأناه العليا الى المستوى الذي يسمو به على نوازع الفطرة والبدائية والالحاح الاولي الغريزي فيتمتع بذلك بحالة استبطان للحدث بما يمليه وعيا وما يختزنه لا وعيا عن حدث ما بصورة مشرقة وضاءة.

٣- الوجدان المستقر: تحتم دقة العمل السياسي وخطورة ممارسته توفر وجدان سياسي ثابت مستقر هاديء وسلامة مشاعر في قراءة احداث التاريخ بحيث لا يكون هذا الوجدان عرضة للتأرجح والاستجابة المستنفزة للحدث. فالسياسي يقرأ الاحداث بمسلمات وجدانية تختلف عن مسلمات غير السياسي. واذا كنا نعني في علم النفس بمرتكزات الوجدان: المزاج والاحساس والمشاعر والحاجات الذاتية، فان كل هذه المرتكزات يجب ان تكون في حالة من الاتزان والموضوعية بما يمكن السياسي ان يكون مغيرا في الحدث بقدر يفوق كونه متغيرا به. فا لذي لا يمارس السياسة كسلوك يتأرجح مزاجه في مناقشة الاحداث تبعا لم يتركه الحدث نفسه على دراسه من اثر. اما الذي يمارس السياسة بوجدانه الثابت فانه يعرف من بواطن الحدث ما يستطيع ان ينتصر به على آليات النفس المرضية وان يضاددها بممارسة آليات صحية مطورة للحدث ومستوعبة لمحتواه. من هنا نصل الى حقيقة اهمية الاحساس السياسي لدى الاديب عندما يكتب تاريخا ادبيا للاحداث فامتلاء قدراته العقلية بميثولوجيا مجتمعه وقراءة الصحيح والخاطيء فيها وتوفر الحس السياسي عاملان مهمان في كتابة تاريخ ادبي سليم[٦].

هوامش الفصل السادس:

١- انظر: مصطفى صادق الرافعي: تاريخ اداب العرب: دار التراث ١٩٨٤ ج١.

٢- انظر: ادب السياسة: احمد الحوفي: مكتبة النهضة مصر ١٩٧٤.

٣- انظر: التفسير النفسي للادب: الدكتور عز الدين اسماعيل: دار العودة ١٩٨٢م.

٤- انظر: النفس والعدوان: الدكتور ريكان ابراهيم: دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٧م.

٥- انظر:

١- ستالين: اسحق دوتشر: ترجمة سامي خشبة. دار الاداب ١٩٧٩م.

٢- النفس والعدوان: د. ريكان ابراهيم. بغداد، ١٩٨٧.

٦- انظر: برتولد برشت:

١- النظرية الادبية والممارسة السياسية (مترجم) دار الشؤون الثقافية ١٩٨٧.

٢- حسن صعب: علم السياسة. بيروت، ١٩٨٠.

3- Human aggress: on: Anthony storr Pelican Book 1974.

الخاتمة

المقياس الكمي للحركة الاجتماعية بحد ذاته لا يخبرنا الا بالقليل عن النية الاجتماعية مقيسا في ذلك او مقارنا بالمقياس الكيفي. ولاجل ذلك اردنا ان نقرا التاريخ قراءة اخرى بوصفه المحرك الاول للكيف الاجتماعي على حساب مقياسه الكمي. والاحصائيات شباك مغررة للقاريء غير الحذر عندما تجرد قرائتنا للتاريخ هذا المنحدر الاحصائي، فيصير الجيل قارئا لتاريخه المحصي بالارقـام والايـام في منأى عن جوهره المر والحلو على السواء. ان التاريخ بدون جوهر يطرح حـلا لحاضر وتصورا لمستقبل احصاء مج. ليس هناك من داع لانكار الاهمية التاريخية لليبرالية الاحداث او لتطرفها فلكل محل في التأثير ودور في المخيلة الاجتماعية، الا انه من الضروري ان نبصر بعين ربصيره واعية الوضع الذي كانـت الاحـداث تعمل من ضمنه، وهو وضع انشأه بشكل عام محدد اولي بالشخوص والمواضيع. اننا لم نكتب تاريخا لاحداث فهذا شغل من يعنيهم ذلك، انما كتبنا علم نفـس للتاريخ. ان شرح السلوك الانساني على اسس فلـسجة ونفـسية واجتماعيـة صحيحة واحد ثابت المسار في ماضي الانسان وحاضره وفي ما سـيكون عليـه مستقبله وان التغاير الحاصل هو ليس في رد الفعل البشري انما في متغيرات الفعل البيئي ذاته. ان دراسة الاحداث لتاريخية بمعزل عن فهم مفردات السلوك فيهـا والدوافع التي تحققها شخوصها كاستجابة لحوافز (مواضيع) الاحداث، سيقود الى النظر للتاريخ على انه جسد هيكلي ركامي من المصفوفات الحديثة التي تمتليء بها الرفوف دونما فائدة. ان مزاوجة الوجدان الاجتماعي السالف لجيل من الاجيال مع الوجدان الاجتماعي الوارث لمعطيات الوجدان الاول هي حصيلة ناجحة من

حصيلات اقتران علم النفس بالتاريخ. ان تاريخ الحروب يشرح فلسجة الانسان العامة على اسس الميل الغريزي البشري للافناء والتدمير. لكن دراسة تاريخ الحروب المضادة التي تقوم على اساس كونها ردود فعل عنيفة على عنف سابق عليها تفيد في المنظور النفسي انها استجابة وقاية ودفاع عن الذات وما تمتلكه من لصيقات القيم المعنوية التي كثيرا ما تكون كافية لتفجير السرد الحربي وسيلة للخلاص. ان أي درس نستخلصه من معركة من المعارك او كارثة اقتصادية من كوارث مجتمع ما او انتكاسه من انتكاساته الثقافية بحيث يفتقر هذا الدرس الى القياس النفسي والى اعادة فهمه بوسيلة من وسائل دراسة السلوك لهو درس فج ساذج لا يقدم الفائدة المرجوة منه. اننا في دراستنا للتاريخ بمعيار نفسي لا نجد انفسنا ملزمين بفكر احد ولا مرغمين على قبول توجهات احد ولكن التراث الانساني عرضة للتصوير شكلا ومحتوى امامنا بالمنظور النفسي الذي نستطيع بموجبه اخذ صالحه وانتباذ طالحه. ان لنا تاريخا تشكل عبر عصوره بكثير من عواملنا الجغرافية والنفسية والثقافية والوجدانية والاعتقادية العقلية، بالشكل او الاطار الذي اصبح فيه ذا خصوصية وامتياز عن غيره من تواريخ الامم الاخرى.

ان المصفاة الحقيقية لشوائب تاريخنا هذا هو علم النفس، ففي ضوئه نحلل احداثه الى اجزائها والى عواملها الاولية وبالتحليل تتوضح امامنا عناصر الوهم والضلاله وعناصر السداد والصحة والمصداقية. ان كثيرا من نظرتنا الى التاريخ الذي استلمناه سيتغير اذا ما اعدناها بمعيار نفسي سليم. لقد طوت العوامل المضادة لحرية الفكر وسيادة الهيمنة الاستعمارية على بلداننا الكثير من اشراق هذا التاريخ وعتمه في عيوننا رؤية الصواب في احداثه، ولكن اعادة محاكمة الاحداث بعقلانية واختبار ووجدان ومشاعر صادقة سيعيدنا الى الكثير من الصواب.

ان اقتسام الجسد التاريخي الى حوادث اقتصادية وفكرية وسياسية وحروب صحيح لاغراض الدراسة ولكنه ليس صحيحا بفرض ان التاريخ جسد مقتسم، مفكك الاوصال. انه وحدة حية، سلوك واحد، والمجتمع، على كبره وضخامته، خلية حية واحدة تهتز اهتزازا واحدا لوخزات الظروف وتستجيب استجابة واحدة تجاه حوافز البيئة المثيرة. ان الكم التاريخي الحي يستطيع ان يكون سلطة تحول كتلة الجماعة التي لا شكل لها الى قطعة نظامية، وتجعل من المخلوق البدائي كائنا اعلى وتزوده بدماغ، وبجهاز عصبي يعطيه العقل، ويقود خياله ويوجهه ويتيح له الاحساسات ويقلل من فرصه في التراجع امام الخوف ويضخم وثباته الجريئة. ان الجماعة بتاريخها تكون متجانسة ثابتة منظمة مدربة ومسلحة لكنها تتصف قبل كل شيء بأنها جماعة مقادة بسلطة عليا هي تاريخها. وعوامل نجاح هذا التاريخ (السلطة) هي الارادة الاجتماعية للتوجه نحو (نحوها).والثبات والذكاء في استخدامه(ستخدامها) اذا كان السلف هو مقدمة هذه الامة ونحن مؤخرتها فان بدراستنا لتاريخ السلف هذا نكون قد دحضنا ما قال به النصوصيون من ان الفرار يبدأ من المؤخرة. ولكي لا نفر من المؤخرة علينا ان نستلهم روح الثبات والفكر من مقدمة مسيرتنا الانسانية الطويلة. واذا كان صحيحا قول بعضهم ((قليل من الناس يولدون شجعاناً)) فنرجو ان يكون صحيحا ايضا القول بان معظم الناس يصبحون شجعانا تحت تاثير توجيه حسن. وما ذلك التاثير الذي نعنيه الا التاريخ الوضاء المشرق.

المراجع

أ- المراجع العربية:

١- هنري هويجر: اللغة والكتابة.

٢- ول دايورانت: قصة الحضارة، ج١،ج٣، ج٤.

٣- ادوارد سعيد: الاستشراق.

٤- الموسوعة العسكرية: ح٢.

٥- ريتشارد شاخت: الاغتراب.

٦- جورج كلاوس: لغة السياسة: ترجمة ميشيل كيلو.

٧- احمد الخشاب: دراسة في النظم الاجتماعية: المجتمعات المختلفة والنظم الدينية، القاهرة الحديثة ١٩٥٨.

٨- فاروق اسماعيل: الانثروبولوجيا الثقافية ح٢ - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٣.

٩- د. علي كمال: النفس: معالجاتها.

١٠- فريزر: الغصن الذهبي: ترجمة احمد ابو زيد - الجزء الاول - الهيئة المصرية ١٩٧١.

١١- محمد الجوهري: الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية، دار الكتاب ١٩٧٨.

١٢- اشيلي مونتاجو: بيان حول العرق: ترجمة حسن بسام: مطبعة وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٧.

١٣- الادراك الحسي عند ابن سينا: محمد عثمان نجاتي.

ب- المراجع الاجنبية:

1- Modern vlinical psychiaty "Kolb" London.

2- Textbook of Comprehensive Psychity, Saddock, Benjsmin & Friedmann. Williams & Wilkins (3rd. ed.) 1989.


3- Handbook of Psychitry: Solomon, Lange Pub. Lication.

4- Encyclobedia Britinika: Salected Reading, 3rd. Vol..

5- Alexander Luria: The Worling Brain. English edition, 1981.

7- Anthony Storr: intgrity of personality Pelican Book. London, 1978.

الفهرست


Bibliotheca Alexandrina
12241814
دار الكندي للنشر والتوزيع
الأردن - إربد
شارع الملك عبدالله الثاني - مقابل البنك الاهلي
تلفاكس 0096227244323 ص. ب 893
E-mail:dar_alkindi@yahoo.com